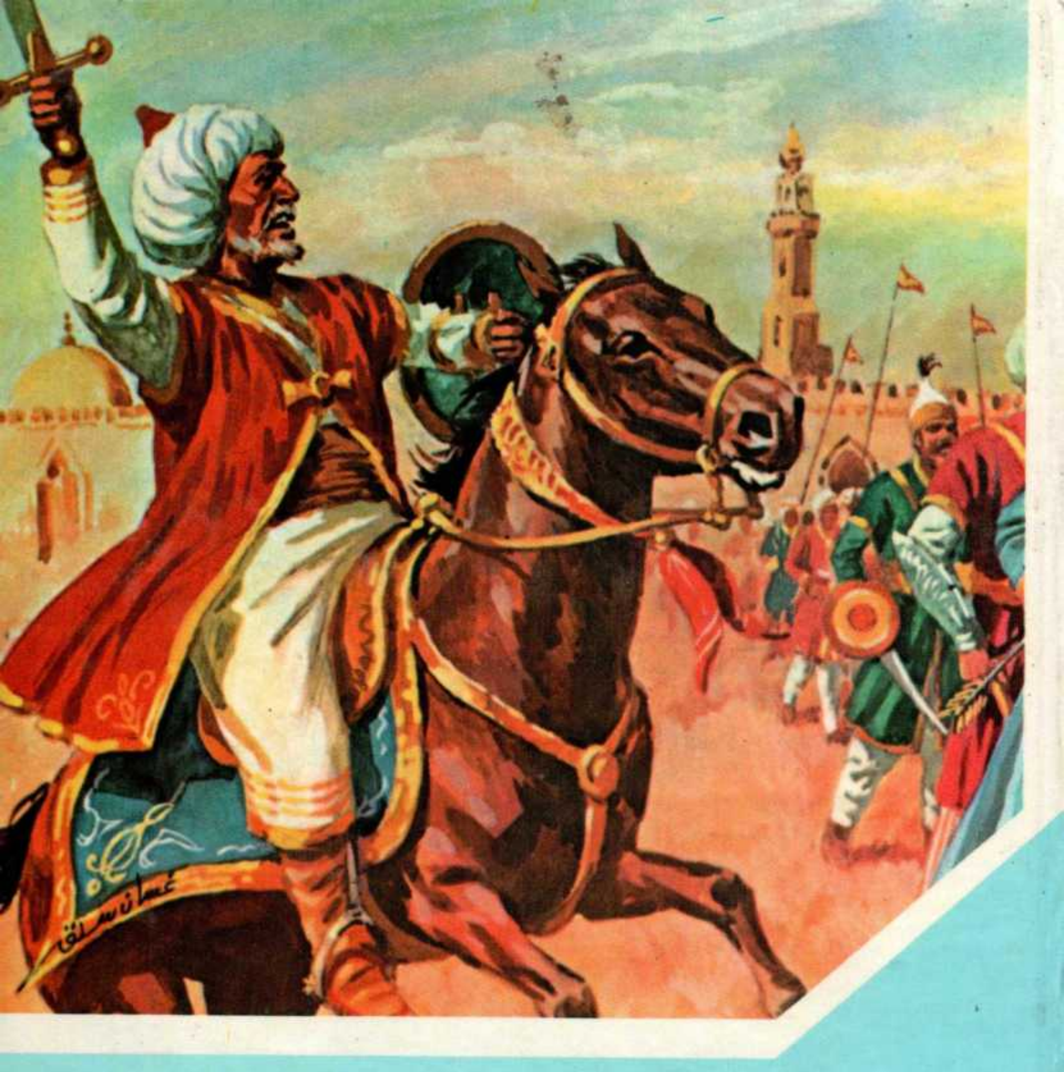


معركة
الحدث الحمراء

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك
وبطولات حربية
اسلامية وعربية

أشرف على تحرير هذه السلسلة

الدكتور : صالح الاشتر

الدكتور : عمر الدقاق

الأستاذ : محمد الأنطاكي

غارات الروم تتوالى على الثغور الإسلامية

بدأتِ الخِلافةُ العبَّاسِيَّةُ تَنْحدِرُ نحو الضَّعْف والتدهورِ منذ مُنْتصَف القرنِ الهجريِّ الثالثِ، ويُعَدُّ مصرَعُ المتوكِّلِ، عاشرِ الخُلفَاءِ العبَّاسيين، على يدِ مُغْتالِيهِ من الجُنْدِ الأتراكِ بدايةً لانهيارِ قُوَّةِ الخِلافَةِ، حيث سيطر القوادُ الأتراكُ على مُقدَّراتِ الدوْلَةِ، ونشروا جوّاً من الفوضى والإرهابِ، ولكنّ الربعَ الأخيرَ من القرنِ الثَّالثِ شَهدَ فترةَ انتعاشٍ للخلافةِ على يدِ المُعْتَضِدِ، شَمِلَتْ عهدَ ابنِهِ المُكْتَفِي من بعده، فتمَّ القضاءُ على القرامِطةَ في العراقِ وباديةِ الشام، وأخْمِدَتْ ثوراتُ الخوارِجِ في الجزيرة، واستردَّ العباسيون مِصْرَ والشَّامَ بعدَ القضاءِ على الدولةِ الطولونيةِ فيهما، وانتظَمَتْ ماليَّةُ الدولةِ، وعَمُرَ بيتُ المالِ بالفَائضِ منه، وتطلَّعَ الخلفاءُ إلى سَحْقِ المُتقلّبين من الولاةِ، الطامحين إلى الاستقلالِ، وأمَّلُوا أنْ يَسْتردُّوا هيبةَ الخِلافةِ وشوكتَها، ولكنَّ فترةَ الانتعاشِ كانتْ وقتيةً، فبعْدَ وَفاةِ المُكْتفي عام ٢٩٥هـ ترَكَ الخِلافةَ لأخيه المُقْتدِر، وهو صبيٌّ ابنُ ثلاثةَ عَشَرَ عاماً، فتحكَّمَ فيه قُوادُ الجيشِ من الأتْراكِ، وسرعان ما استنزفَ الترفُ فائِضَ بيتِ المالِ، وخلَتْ خَزِينةُ بغدادَ، واشتَدَّتْ وَطْأةُ

الأزْمةِ الماليّةِ، وأصبح القائدُ التركيُّ مُؤنِسٌ الخادمُ صاحبَ الحوْلِ والطوْلِ في البَلاطِ، وعادَتِ الخِلافةُ إلى التّدهورِ ثانيةً، وأصبَحتْ في مطلعِ القرنِ الرابعِ الهجريِّ تسيرُ في خُطا عمياء نحو قَدَرِها الحزينِ، ليُقطّعَ المغامرون والمُتسلِّطون الطامِحون من الوُلاةِ أوصالَهَا بصورةٍ إجماعِيّةٍ ونهائية!

وهكذا عرف القرنُ الرابعُ ظهورَ عددٍ من الدولِ على حساب تمزيقِ الامبراطوريةِ العبّاسِيّةِ: فإلى جانب الدولةِ الأمويّةِ في الأندلس، والدولةِ الفاطميةِ في إفريقية، نجد قيامَ دُويلات مُستقلةٍ في الجانب المشرقيِّ من بلاد الإسلامِ: الاخشيديون في مِصْرَ والشّامِ، والقرامطةُ في البحرين، والبريديون في البصرة وواسط، والحمدانيون في الموصل وديارِ بني ربيعةَ وشَماليِّ الشامِ، والديلمُ في جُرجان، والبويهيون في فارس، وقد أغوى هؤلاء الأخيرين ضعفُ الخلفَاءِ وتسلُّطُ القُوّادِ الأتراكِ على الخلافةِ بالزّحْفِ على بغدادَ، والاستيلاءِ عليها، فلم يبقَ للخليفةِ العباسيِّ بعد ذلك غيرُ سُلطةٍ أسميةٍ رمزيّةٍ، وعمَّ الفسادُ، واشتدَّتِ الفتنُ، وكثُرَتِ الثوراتُ العَلويّةُ، وازدادتْ غاراتُ الأعرابِ والخوارجِ في كلِّ طرفٍ، وعاث القرامطةُ فساداً في جزيرةِ العربِ والحجازِ والشامِ، وتعدّدَتْ غاراتُهم على المُدنِ الإسلامية، ينهبونها، ويتصدّون لقوافلِ الحُجّاجِ بالقتل والنهب، وفي عام ٣١٧ داهموا مكّةَ في الموسِم، وذبحوا الحجيج حول الكعبة.

واستولوا على الحجر الأسودِ، وحملوه معهم إلى هجر، عاصمَتِهِم في البحرين، ولم يُعيدوه إلى مكّةَ إلاّ بعد إثنين وعشرين عاماً (سنة ٣٣٩هـ) وشَمِلَ الإرهابُ القرمطيُّ جزيرةَ العربِ وبلادَ الشامِ زُهاء ثلاثين عاماً، وكان من الطبيعي أنْ ينتهز الرومُ البيزنطيون الفُرْصةَ السانحةَ، وهم يرون انحلالَ الخِلافةِ العبّاسيةِ وتمزُّقَ أوصالها واستشراء الفسادِ والفتنِ فيها، فيوالونَ غاراتِهِم على الثغورِ الإسلامية، ويُشدّدون الوطأةَ عليها، ويُخرّبون مُدُنَ الحدودِ، ويقتلون سكانها، ويُداهمون بلادَ الشام وسواحِلَها، ويأسرون ويسبون ويغنمون، أكثر من مرّةٍ، وهم آمنون ظافرون، لأنَّ الحاكمين المتسلطين في تلك الدويلاتِ في شُغلٍ شاغلٍ عن حماية الحدودِ الإسلامية، والتصدي للجيوشِ البيزنطيَّةِ المُغيرةِ عليها.

وقد شاءتْ عنايةُ اللهِ أنْ ينهضَ الحمدانيون بدَوْرٍ تاريخيٍّ مجيد، خلالَ النصفِ الأوّلِ من القرنِ الرابع، في وقوفهم أمامَ غاراتِ البيزنطيين على الثغور الإسلاميةِ في الجزيرة وشَماليّ الشامِ، ودَحْرِ جيوشِهِمُ الزَّاحفَةِ، وحمايةِ العالمِ الإسلاميِّ في المشرق، من تلك الهجماتِ الصليبيَّةِ المبكرَةِ، في تلك الفترة الحالكَةِ السوادِ!

هنا تبرُزُ أهمِيَّةُ الإمارةِ الحمدانيةِ المُسْتقلَّةِ التي أسسها سيفُ الدولةِ في شَماليِّ بلادِ الشامِ، واتخذ من مدينةِ حلبَ حاضِرَة (عاصمة) لها، وقد استطاعتْ هذه الدولةُ العربيةُ الصغيرةُ أنْ تلعبَ

دوراً كبيراً في صدِّ هجمات الروم، وردِّ جيوشِهِمُ الجرَّارةِ على أعقابِهَا مهزومةً، في معاركَ كُبرى حافلةٍ ببطولاتِ الحمدانيين وتضحياتِهِم، ولم يقتصِرْ دورُ سيفِ الدولةِ على دفعِ المُغيرين وصدِّهم فتوالَتْ غزواتُهُ على الثغورِ الروميةِ، وتعدَّدَتِ انتصاراتُهُ على الجيوشِ البيزنطيَّةِ، بأعْدادِها الضخمةِ، وقوَّادِها البطارقة الكبار، ولئن كان المؤرخون المسلمون لم يُعطوا في وصفِهِم لمعاركِ الأميرِ الحمدانيِّ مع الروم ما تستحِقُّهُ من عِنايةٍ وتفصيلٍ، فإنَّ دورَهُ البطوليَّ المجيدَ لم يُغمطْ حقُّهُ في ضميرِ الأمَّةِ العربيةِ عبر الأجيالِ حتى اليوم، لأنَّ ذكرياتِ جهادِهِ العظيمِ حملها الأدبُ والشعرُ من بعدِهِ إليهم، فرأوا فيها صوراً رائعةً حيَّةً من وقائعِ سيفِ الدولة وحروبِهِ، واستشفُّوا من خلالها عَظَمَةَ المهمَّةِ القوميةِ الكبرى التي نَدَبَ نفسَهُ لها، ووضع إمارتَهُ الحمدانيةَ الصغيرةَ في خدمتها.

لقد خاض سيفُ الدولةِ قُرابةَ أربعين وقعةً حربيَّةً مع الروم، خلالَ عشرين عاماً أو تزيدُ، فكان يقضي أيامَهُ في الثغورِ، في غزوٍ مُتَّصِلٍ لا يكادُ ينقطعُ، حتى حُقَّ لشاعرِهِ أبي الطيبِ المتنبي أنْ يسألَهُ يوماً:

أنــتَ طــولَ الحــيــاةِ للــروم غــازٍ
فمتى الــوعــدُ أنْ يــكــونَ الــقُــفــولُ؟

ولم يكنِ النصرُ حليفَ الأميرِ الحمدانيِّ الشجاعِ في جميعِ معاركِهِ مع الرُّومِ، فالحربُ سِجالٌ، يومٌ له و يومٌ عليه، ولكنَّ الهزيمةَ لم تكنْ لتحملَ إلى نفسِهِ الصامدةِ الخورَ واليأسَ يوماً، فكان يتهيأ دونَ رَيْثٍ لخوضِ المعركة التالية، بروحِ مُجاهدٍ مُتشوِّق إلى الحرب، وعزيمةِ بطلٍ لا يَمَلُّ العودةَ إلى القتالِ، لِينتزعَ الغَلَبةَ والنصرَ، ويحقّق للحمدانيين المجدَ الذي عناه ابنُ عِمّهِ أبو فراسٍ بقوله:

لئن خُـلـق الأنـامُ لِـحَـسْـوِ كـأسٍ
ومـزمـارٍ وطُـنـبـورٍ وعُـودِ
فـلـم يُـخـلَـقْ بـنـو حـمدانَ إلاَّ
لمجـدٍ أو لِـبـأسٍ أو لِـجُـود

ونحن نختارُ اليومَ واحدةً من أمْجدِ معاركِ سيفِ الدولة مع الروم، لنقدِّمَها إلى القراءِ، في سلسلة «المعارك والبطولات الحربية العربية والإسلامية» وهي معركةُ الحَدَثِ الحمراءِ التي صمد فيها الأميرُ الحمدانيُّ في وجهِ الموتِ، وأبدىٰ فيها مع أصحابِهِ أروعَ آياتِ البطولةِ العربيةِ، حتى تحقق لهمُ النصرُ، بعد أهوالٍ شديدة، شارك المتنبي فيها، فوصف لنا ضَراوةَ القِتالِ وصفَ شاهدِ عيانٍ، في قصيدةٍ حماسِيَّةٍ رائعةٍ، سنقفُ عند مقاطعَ كثيرةٍ منها.

وقبل أنْ نبدأ الحديثَ عن المعركةِ لا بُدَّ من تقديمِ صورةٍ مُوجزةٍ

إلى القارىء عن الدولةِ الحمدانيةِ في شَمالِيِّ الشامِ، وحاضرتِهَا حلبَ في ظلِّ سيف الدولة، وشخصيةِ الأميرِ الحمدانيِّ كما تُمثِّلُها وقائعُ حياتِهِ وآراءُ معاصريه.

الدولة الحمدانية في شمالي الشام

ينتسب الحمدانيون إلى جَدِّهِم «حمدانَ بنِ حمدون» وهم من قبيلةِ تغلِبَ العربيةِ التي نزلَتْ بضواحي مدينةِ الموصلِ، وهي مِنْطَقَةٌ في الجزيرةِ، يكْثرُ فيها ظُهورُ الخوارجِ، وقد لعب حمدانُ دوراً في الأحداث السياسِيَّةِ التي شهدَتْها الموصلُ في عهدِ الخليفةِ المُعْتضدِ، فتحالف مع بعضِ الشُراةِ (الخوارج) واستولى على قلعةِ ماردينَ، ولكنّ المُعْتضدَ طارده، فهرب منها وترك ابنَهُ الحسينَ عليها، وقد تمكَّنَ الخليفةُ من القبضِ على حمدانَ، وألقىٰ به في السجن، وعندما تمكَّنَ الحسينُ بنُ حمدانَ من هزيمةِ الخارجيِّ الثائرِ رَضِيَ المُعْتضدُ

عنه، وكرَّمَهُ وطوَّقَهُ (ألبسه طوقاً) وخلع على إخوتِهِ، ووَعَدَ بإطلاقِ سراح أبيهم، ومنذُ ذلك الحينِ بدأَتْ شُهْرةُ الحمدانيين تبرُزُ على مسرحِ الأحْداثِ في الدولة العباسية. وأبلى الحسينُ بنُ حمدانَ في مُحاربَةِ القرامِطَةِ بلاءً حسناً، ولكنَّه في عهدِ المُقْتدرِ ناصَرَ حركةَ عبدِالله بنِ المُعْتزِّ في استيلائه على الخلافةِ، فلمّا انهارتِ الحركةُ وأخفقَتْ، وقُتِلَ ابنُ المعتزِّ، انتهى الأمرُ بالقبضِ على الحسينِ الحمدانيِّ، وظلَّ في سجنِهِ حتى مات فيه.

وفي عهدِ المُقْتدرِ تقلَّد عددٌ من الحمدانيين مناصبَ عُلْيا في الدولةِ العباسية، ومن بينهم أبو الهيجاءِ عبدُالله بنُ حمدانَ، والدُ سيفِ الدولةِ، وقد قلَّدَهُ المُقْتدرُ إمارةَ الموصلِ، فأناب أبو الهيجاءِ بعد حينٍ ولده الأكبرَ الحسنَ في حُكْمِها، واستطاع

الحسنُ الحمدانيُّ أنْ يبسطَ نُفوذَهُ على جميعِ ديارِ بكرٍ وديارِ ربيعةَ، وفي عام ٣٣٠هـ فاز الحسنُ برِضى الخليفةِ المُتَّقي، فمنحه لَقَبَ (ناصِرَ الدولةِ) وقلَّدَهُ «إمْرَةَ الأمَراءِ» في بغدادَ، فأصبح ناصِرُ الدولةِ الحمدانيُّ القائدَ الأعلى لجيوشِ الخلافةِ العباسيةِ، وفي تلك الفترة نفسِهَا كان أخوه الأصغرُ عليٌّ يحاربُ البريديين، ويفوزُ برضى المُتّقي، فيخلع عليه لقبَ (سيفِ الدولة)، وبدأ نجم الحمدانيين يَسْطَعُ، وأضحى سيفُ الدولةِ الساعدَ الأيمنَ لأخيه ناصِرِ الدولة، وقد حاول ناصِرُ الدولةِ القيامَ بعدةٍ إصلاحات، وضيَّقَ على الخليفة في النفقاتِ، واشتطَّ في فرْضِ الضرائب، فغلَتِ الأسعارُ، وسَخِطَ النَّاسُ، وأسرع الخليفةُ يستنجِدُ بقائِدِ الشرطةِ التركيِّ (توزون)، فرحل ناصِرُ الدولةِ عن بغدادَ إلى الموصلِ، ولم يستطعِ الحمدانيون الصمودَ في وجْهِ

المُتسلِّطين من الأتراكِ على الخِلافةِ أكثر من عامٍ واحدٍ (٣٣٠-٣٣١هـ)، وما أَسْرعَ ما نشبَ الخِلافُ بين الخليفةِ العبّاسيِّ وأميرِ الأمراءِ التركيِّ توزون، ولم يَجِدِ المُتّقي بُدًّا من اللجوءِ إلى حمايةِ ناصِرِ الدولة الحمدانيِّ، وجرتْ وقائعُ عدّةٍ بين الحمدانيين وجيشِ توزون، وتوالَتْ هزائمُ الحمدانيين، ولكنّ الحروبُ انتهتْ بإقرارِ وَلاَيَةِ ناصِرِ الدولة على الموصل وما حولها، على أنْ يُؤديَ كلَّ سنةٍ مقداراً مُحدَّداً من المال إلى خزينة الدولة ببغدادَ.

وعندما استولى البويهيون على بغدادَ، أرادوا الحدَّ من نُفوذِ ناصِرِ الدولة الحمدانيِّ في الموصل، وطارد مُعِزُّ الدولةِ البويهيُّ جيشَ الحمدانيين مراتٍ بين الموصل ونُصيبين وميافارقين والتجأ ناصِرُ الدولة

أخيراً إلى أخيه سيفِ الدولةِ، وكان أقام إمارتَهُ المُسْتقلَّةَ في حلبَ، فبالغ أميرُ حلبَ الحمدانيُّ في إكرامِ أخيه، وراسلَ مُعزَّ الدولةِ في الصُّلْحِ، وكفل أنْ يَتِمَّ دفعُ الأموالِ المقرَّرةِ إلى بيتِ المالِ ببغدادَ بضمانتِهِ، فوافق مُعزُّ الدولةِ، وعاد بجيشِهِ إلى بغدادَ.

كان سيفُ الدولة منذ عودتِهِ مع أخيه ناصِرِ الدولة إلى الموصل من بغدادَ عام ٣٣١ يُهيِّيء الأسبابَ والسوائلَ لتِأسيسِ إمارةٍ له في شَماليِّ الشامِ، وقد سار على رأس جيشٍ من الحمدانيين والغلمانِ الأتراكِ إلى حلبَ، وامتلكها بعد أنْ طرد منها عامِلَ الأخشيديين عليها، وزحف منها إلى حمصَ ودمشقَ، واستطاع أنْ يهزمَ جيشَ الأخشيديين (حكامِ مصرَ والشامِ) في معركةٍ مُظفَّرةٍ عند الرستن، بالقُرب من حماة، وهزمهم ثانية في

قنسرينَ قُرْبَ حلبَ، ولكنَّ الأخشيدَ لم ييأس، وانتهز فُرْصةَ انشغالِ الجيشِ الحمدانيِّ بجمعِ الغنائمِ وَاقْتِسامِها، فكَرَّ عليه ثانيةً، وبَدَّدَ شَمْلَهُ، ودخل حلبَ ظافِراً، واستردَّ دمشقَ، ولكنَّ الأخشيدَ ـ على الرغم من انتصاره ـ وافق على أنْ يُصالح سيفَ الدولةِ، ويتركَ له حلبَ وما يليها من بلادٍ في شَماليِّ الشامِ، وتعهَّد بأنْ يدفعَ إلى الأميرِ الحمدانيِّ جزيةً سنويَّةً مُقابِلَ احتفاظِهِ بدمشقَ!

ويَعْجَبُ الباحثون مِنْ تساهُلِ الأخشيديين وسماحتِهِم في إبرامِ هذا الصلح وشروطِهِ، بعد انتصارِهم على سيفِ الدولة، والحقُّ أنَّ الأخشيديين لم يكونوا يُريدون القضاءَ على الإمارةِ الحمدانيةِ المُستقلَّةِ في شَماليِّ الشامِ، لِتكونَ حجاباً حاجِزاً بينهم وبين الروم، تكفيهم مؤونةَ حربِهِم، وصَدَّ

غاراتِهِمُ المتواليةِ على الثغورِ الإسلاميةِ، ولكنّ فترة الصلحِ بين الحمدانيين والأخشديين لم تَدُمْ طويلاً، فقد مات الأخشيدُ عام ٣٣٤هـ واستبدَّ غلامُهُ الخصي كافور بالحُكْمِ من بعدِهِ، باعتباره وصيّاً على ابنِ الأخشيدِ، وطمع سيفُ الدولةِ بضم دمشقَ إلى إمارتِهِ، فسار على رأسِ جيشِهِ إليها، واستولى عليها، فأسرع كافور الأخشيديُّ بقواتِهِ من مصرَ، وخرج سيفُ الدولةِ إلى لقائِهِ، ولكنّه هُزِمَ في معركتين متواليتين، واسترد الأخشيديون دمشقَ، ودخلُوا مدينةَ حلبَ، ثم عقدوا مع الأميرِ الحمدانيِّ مُعاهَدةً جديدةً للصلحِ، ولم يكنْ فيها من جديد غيرُ إلغاءِ الجزيةِ التي رفض كافور أنْ يوالي دفعها إلى الحمدانيين.

لقد كان الأخشيديون في مصر يَدْرِكُون جيّداً أن

إمارةَ سيفِ الدولةِ الصغيرةَ في شَماليِّ الشامِ هي سيفُ الإسلامِ في وَجْهِ الخطرِ البيزنطيِّ المُتزايدِ، وأنَّ من صالح الدولةِ الاخشيديةِ ألاّ يُغْمَدَ هذا السيفُ المُصْلتُ، ليكفيهم مؤونةَ الحروبِ التي لا تكادُ تنقطعُ عندَ الحدودِ، و يوفرّ لهم الأمْنَ المنشودَ، ولهذا عاد كافور بجيشِهِ إلى مصرَ، وظلَّ سيفُ الدولة يزدادُ في إمارته المُسْتقِلّةِ قُوّةً وسُلطاناً، حتى إنَّ مُعزَّ الدولةِ البويهي رضي بتوسط أميرِ حلب لديه، بشأنِ نزاعِهِ مع أخيه ناصِرِ الدولة، وقَبِلَ كفالتَهُ له كما قدّمنا، وكان البويهيون في العراقِ يدركون أيضاً ما أدركه الأخشيديون في مصرَ، من أنّ إمارةَ سيفِ الدولةِ في شَماليِّ الشامِ والجزيرةِ هي الدرعُ الواقيةُ لهم من غاراتِ البيزنطيين وهجماتِهِمُ المباغتَةِ، ولولاها لكان أَمْنُهُم مُهدَّداً، وكان عليهم أنْ يتحملوا

أخطارَ تلك الغاراتِ ونفقاتِهَا، وقد كان الشاعر المتنبي واعياً لجملة هذه الحقائق، عندما كان يُعْلِنُ لأميرِهِ الحمدانيِّ أنَّ سيفَهُ المسلولَ هو الذي يكفلُ لكلٍّ من مصرَ والعراقِ أمنهما وسلامهما:

لـيـس إلاّكَ يـا عـلـيُّ همامٌ
سـيـفُـه دون عِـرْضِـه مـسـلولُ
كـيـف لا تـأمـن الـعـراق ومصرٌ
وسـرايـاكَ دونَـهـا والخـيـولُ
أنـت طـولَ الحـيـاةِ للـروم غـازٍ
فمتى الـوعـدُ أن يـكـون الـقُـفـول
قعد الـنـاس كلُّهم عن مـساعيـ
ـكَ وقـامـت بها الـقـنـا والنُّصولُ
مـا الـذي عـنـده تُـدارُ المـنـايا
كـالـذي عـنـده تُـدار الـشَّـمُـول

وفي البيتين الأخيرين تعريضٌ بالعبّاسيين والأخشيديين، فقد انصرفوا إلى مجالسِ اللهوِ والشرابِ، آمنين غافِلين، وتركوا سيفَ الدولةِ وحدَهُ يخوضُ ميادينَ القِتالِ، ويُصارعُ المنايا، في وجه الجيوشِ الروميَّةِ، لِيصدَّها بسراياه وكتائبه وفُرْسانِهِ، ويضمن لأولئك اللاّهين الغافلين في العراقِ ومصرَ دَعَتَهُم وأَمْنَ بلادِهِم!

ولكنّ إمارةَ سيفِ الدولةِ في شَماليِّ الشامِ لم تكتفِ بأن تكونَ درعاً واقيةً للإسلامِ من غاراتِ البيزنطيين المُتكرِّرةِ على ثُغورِهِ ودِيارِهِ، خلال أكثر من عشرين عاماً من حكم الأميرِ الحمدانيِّ (من عام ٣٣٣-٣٥٦هـ) فقد تكشَّفَتْ شخصيةُ الأميرِ القائدِ عن مزايا رجلِ دولةٍ، جعل من مدينةِ حلبَ في القرنِ الهجريِّ الرابعِ عاصمةً زاهرةً تُضاهي بغدادَ العبّاسية وتُنافسها.

حلب في ظل سيف الدولة

عندما أَسَّسَ الأميرُ الحمدانيُّ إمارتَهُ المستقِلَّةَ في حلبَ عام ٣٣٣ هـ كان ما يزالُ شاباً في الثلاثين من عمره، ولكنّه كان منذ أيفع مُحارباً صُلْباً بعيدَ الآمالِ والمطامحِ، وظهَرَتْ مخايلُ شجاعتِهِ ونضجُ رجولتِهِ وعمقُ وعيه وذكائِهِ خلالَ تمرُّسِهِ بالمهماتِ الكبيرةِ التي كان يُعِيْنُ بها أخاه ناصِرَ الدولةِ، وهو أميرُ الأمراءِ ببغدادَ، وعندما استقرَّ سيفُ الدولة في مدينةِ واسط، جنوبيّ بغدادَ، على رأسِ فرقةٍ من الجيشِ العبّاسيِّ، أكثرُ أفرادِها من الغلمان الأتراكِ، راحَ الأميرُ الطموحُ يرسُمُ لنفسِهِ طريقَ المستقبلِ، ويُوَثِّقُ صِلاتِهِ بالجُنْدِ، ويصطفي منهمُ

الأصحابَ المخلصين، و يعدُّ العدَّةَ لتحقيقِ آمالِهِ الكبيرةِ: إنَّ أوصالَ الخِلافةِ العبَّاسيةِ المتداعيةِ تتمزَّقُ بأيدي الطامِحِينَ من الوُلاةِ، وهو يُريدُ أنْ يقتطعَ لنفسِهِ جزءاً، ولكنّه واثقٌ من أنّ آمالَهُ لا تتحققُ في العراقِ، لأنّ الطامعين فيه كثيرون، وعليه أنْ يتَّجِهَ بأحلامِهِ نحوَ الشامِ، و يقود رجاله إلى هناك، ليبنيَ بهم دولتَهُ المستقِلَّةَ، بعد أنْ ينفُخَ فيهم روحَ العزيمةِ والصَّلابةِ والإقدامِ، وهكذا لم تنقضِ ثلاثُ سنواتٍ حتى تمكَّنَ سيفُ الدولةِ من تحقيق حلمِهِ البعيدِ، واتخذ من مدينةِ حلبَ حاضِرةً لإمارته، وضمَّ إليها المِنْطَقَةَ الشَّماليَّةَ من بلادِ الشَّامِ، وفرض نفسَهُ بطلاً من أبطالِ الإسلام، في حمايتِهِ للثغورِ المهدَّدةِ، وتصدّيه للهجمات البيزنطية المتوالية عليها.

كان الخطرُ البيزنطيُّ على تلك الثغورِ يتزايدُ عاماً بعد عام: فقَبْلَ سنتين، أي في عام ٣٣١ هـ، أغار الرومُ على أرزن وميّافارقين ونُصيبين، فقتلوا وسبوا كثيراً من المسلمين، وقبل عام واحد من قيامِ إمارةِ سيفِ الدولةِ، أي في عام ٣٣٢ هـ، اجتاحَ الرومُ مدينةَ رأس العين، بين حَرّان ونُصيبين، في ثمانين ألفاً من المُحَارِبين، فقتلوا وغنِموا وسبوا خلقاً عظيماً من المسلمين، وقد قامَتْ إمارةُ سيفِ الدولة في عام ٣٣٣ هـ في هذه المِنْطَقَةِ المُهدَّدةِ بالهجماتِ الرومية المتكررة، لأنَّ ضَعْفَ الخِلافةِ في بغدادَ، وكثرةَ الفِتنِ والثوراتِ الداخلية في أَقْطارِ الخِلافةِ، والصراعَ القائمَ بين قادةِ الجيشِ العبّاسيِّ لِلاسْتهتارِ بالسُّلطانِ والنُّفوذِ ونيلِ المغانم، كلّ ذلك أَطْمَعَ البيزنطيين وأغراهم بموالاةِ عدوانِهم على الثغورِ

الإسلامية ونهبها وسبي أهلِها، وكان الأميرُ الحمدانيُّ يدركُ جيداً خطرَ المهمةِ التي ندب نفسَهُ لها، فعكف في حلبَ على تكوينِ جيشِهِ وإعْدادِهِ، وموالاةِ تدريبه، وتزويدِهِ بأشجعِ القَادةِ، من أبناءِ قبيلتِهِ الحمدانية، ومن المقرّبين إليه من غلمانِهِ الأتراكِ، ومن جماعَةِ المُجاهدين الذين يُقْبلُونَ على الثغورِ الإسلامية، لِيُرَابِطوا فيها، جِهَاداً في سبيلِ اللهِ، وتطوُّعَاً للدفاعِ عن ديارِ الإسلام. وكان سيفُ الدولةِ يضُمُّ إلى جموعِ جيشِهِ المُقَاتِلين من رجالِ القبائلِ العربية من بني عقيل، وبني نمير، وبني كلب، وبني كلاب، وهم مُحاربون أَشِدَّاء، ولكنَّهم كانوا أحياناً يشاركون في الشَّغَبِ والفِتَنِ، وقد عانىٰ الأميرُ الحمدانيُّ أحياناً من فوضاهم وتمرُّدِهِم، واضطر إلى حربهم لتأديبهم، ولكنَّه كان

في كلِّ مرَّةٍ يوقعُ بهم، لا يلبثُ أنْ يعفوَ عنهم، ويستبقيهم، لأنَّهم مادةُ جيشِهِ، والمعوَّلُ الكبيرُ عليهم في صدِّ الهجمات الرومية ودحرِها.

لقد شغلَتِ الحروبُ أميرَ حلبَ، طوال سني إمارتِهِ، ونحن إذا أضفنا إلى غزواتِهِ الأربعين ووقائعه فيها مع الروم حروبَهُ الأخرى التي خاضها للقضاءِ على الفِتنِ الداخليةِ (مثل ثورات بعض القبائل البدوية والكردية، وتمرّد بعض قواده وغلمانه الأتراك وعصيانهم وشغبهم) وأضفنا إلى ذلك معارِكَهُ مع الأخشيديين في السنواتِ الثلاثِ الأولى من تأسِيْسِ إمارتِهِ، أيقنّا أنَّ سيفَ الدولةِ لم يكنْ يضع سلاحَهُ يوماً، إلاّ ليحمِلَهُ في اليوم التالي من جديد، لحمايةِ إمارتِهِ من أعدائها في الداخلِ والخارجِ.

والعجيبُ حقّاً أنَّ الحروبَ وكثرتها، وما تجرُّهُ أحياناً من هزائمَ ونكباتٍ ومآسٍ، لم تَشْغَلْ أميرَ حلبَ عن أنْ يُحقِّقَ لدولته ازدهارَ الجوانبِ الحضارية التي تجعلُ من عاصمته مَرْكَزَ إشعاعٍ فكريٍّ وثقافيٍّ، وعلميٍّ وفنيٍّ، في عصره، فبعد سنواتٍ قليلة من استقرارِ الإمارةِ الحمدانية، أصبحتْ حلبُ صورةً مُشْرِقةً من بغدادَ، في أزهى عصورِ تألُّقِها الحضاري، وأصبح بَلاطُ أميرِهَا الحمدانيِّ مَجْمَعاً لكبارِ الموهوبين من رجالِ الثقافةِ والعلمِ والفَنِّ في عصره، ويَحْكُمُ الثعالِبيُّ في كتابِهِ يتيمةِ الدهرِ بأنَّه «لم يجتمع قطُّ ببابِ أحدٍ من الملوكِ ـ بعدَ الخلفاءِ ـ ما اجتمع ببابِ سيفِ الدولةِ من شيوخِ الشعر ونُجوم الدهر» والأميرُ الحمدانيُّ نفسُهُ كان شاعراً، وكان شخصيةً مُثَقَّفةً، يحفظُ أكثر

الشعرِ العربيِّ القديمِ، وكان سِحْرُ الكلمةِ يَسْتولي على لُبِّهِ، وكان يهتمُّ بكلِّ ضُروبِ الثقافةِ الإسلامية في عصره، من فنِ الخطِّ إلى الفلسفَةِ، ومن الموسيقى إلى الأدبِ واللغةِ، ومن الطبِ إلى علمِ النجوم.

لقد أصبحتْ حلبُ في ظلِّ سيفِ الدولة مركزاً ثقافياً ممتازاً يَؤمُّهُ الناسُ لينهلوا منه، وقد أنشأ فيها الأميرُ الحمدانيُّ مكتبةً كبيرةً غنيَّةً، تحتوي على أكثرَ مِنْ عشرةِ آلاف مُجلَّدٍ، واستطاع أن يجذبَ إلى بَلاطِهِ في حلبَ زُمْرَةً مُخْتارةً من العلماءِ والفُقهاءِ والأدباءِ والشعراءِ، بهباتِهِ السخيَّةِ التي كان يغمرهم بها، وهو الذي ابتدع دنانير الصِّلاتِ، وهي دنانيرُ ذهبيةٌ خاصَّةٌ، وزنُ كلِّ دينارٍ عشرةُ أمثالِ الدينارِ العاديِّ، وكان يُكافِىء بها أصحابَ المواهبِ الكبيرةِ، لِيُفجِّرَ أقصى طاقاتِها، حتى حقَّ لحلبَ في

ظلَّ سيفِ الدولة أنْ تزهوَ بعددٍ من عمالِقَةِ الفِكْرِ والأدبِ والفنِ من رجال العصر: من أمثالِ أبي الطيبِ المتنبي وأبي فراسٍ الحمدانيِّ، والصنوبري والوأواءِ الدمشقيِّ والسريِّ الرفَّاءِ والببغاء والخالديين وكُشاجم في الشعواء، وأمثالِ أبي بكرٍ الخوارزميِّ وابنِ نُباتَةَ الخطيب في الكتّاب، وأمثالِ أبي عليٍّ الفارسيِّ وتلميذِهِ العبقريِّ ابنِ جني، وابن خالويه في الفقهاء اللغويين، وأمثالِ عيسى الرقي الذي كان يحسن النقل عن السريانية إلى العربية في الأطباء، وأمثالِ القابسي المنجمّ والناشىء الأصغرِ العالِمِ الشيعيِّ في العلماء والمنجمّين، وأمثال الفارابي المُتعدِّدِ الثقافات في الفلاسفة، ولم يكنْ للفارابيِّ مثيلٌ في عصرِهِ، في فهمه لفلسفةِ أرسطو، وقد تلاقت هذه العبقريات الفذَّةُ في حلبَ، حولَ أميرِهَا

الحمدانيِّ، وكان قد بنىٰ قصره البديع (الحلبة) في سَفْحِ جبلِ الجوشنِ، وأنفق عليه بسخاءٍ كبيرٍ، حتى تناهىٰ في حُسْنِهِ، لما حواه من دقائقِ الفنِ و بديعِ الزخرف ومخُتلفِ التصاويرِ والنقوشِ، و ينقلُ الأستاذُ سامي الكيالي في كتابِهِ عن سيفِ الدولة وصفَ المستشرقِ الفرنسيِّ (أندريه دايفتس) لِقَصْرِ الحلْبةِ، وقد رجع فيه إلى مؤرخين رومانيين شهدوا روعةَ القصرِ، فيقولُ:

«وابتنىٰ الأميرُ الحمدانيُّ بواسطة الأسرى العديدين على ضفافِ نهرِ قويق قصراً عظيماً دعاه «قصرَ الحلْبةِ» فجاء بأَحْذَقِ المهندسين وأمهرِ المصوِّرين وأبرعِ البنّائين والنجّارين، يُعْنَون ببناءٍ هذا القصرِ وفرشِهِ على أفخمِ طِرازٍ، وأبدعِ ما تضُمُّهُ قصورُ أباطرةِ الرومانِ.. وعندما افتُتِحَتْ أبوابُ القصرِ

للمرَّةِ الأولى كان ذلك مثارَ الدهشةِ والإعجابِ، لأنّ الأبوابَ كانتْ من البرونزِ النحاسي، نُقِشَتْ عليه ألوفُ التصاويرِ المُسْتَغْرَبَةِ الجميلةِ، وهي تدورُ على قواعدَ من الزجاجِ، حتى لا تأتي بحركة، وإذ تدخلُ البابَ تواجهُكَ قاعاتٌ مُتتابعةٌ ملأى بالأعمدَةِ المرمرية المُزَرْكشةِ والمُوشَّاةِ بالذهبِ والفضةِ، وجعل المصورون رسومَ الزهورِ في أواسطِ القبابِ العاليةِ حيثُ حفروا بين جهةٍ وأخرى آياتٍ من كتابِ اللهِ الكريم، بأحرفٍ كوفية جميلة، وأبياتٍ مُختارةٍ لأعاظمِ الشعراءِ، بأحرفٍ فارسية فتانه.. وكان للقاعة الكبرى خمس قبب بلون اللازورد، يحملها ١٤٢ عموداً من المرمر المُزَرْكشِ بالفضَّةِ والذهبِ، تُنِيرُها ألوفٌ من النوافذِ الزجاجية الملوَّنةِ، وفي وسطِ كلِّ عمودٍ، خرجتْ زهرياتٌ ملأى بالزهورِ والنباتاتِ النَّادِرَةِ، وفي الوسطِ إفريزٌ

عظيمٌ من خشبِ الأبنوس الموشَّى بالذهب، جُعِلَ خِصِّيصاً لجلوسِ الأميرِ والخاصَّةِ من رجاله إلخ...».

وفي أوصافِ هذا المستشرقِ الفرنسي لقصر الأميرِ الحمداني حظٌ من المبالغة والخيال، ولكنّ سيفَ الدولةِ كان معروفاً ببذخه، وقد تحدَّثَ المؤرخون المسلمون عن قصرِهِ فوصفوه بالجمال والعَظَمَةِ، وأشاروا إلى الأسوارِ التي عملها له، حتى غدا أشبه بالحِصْنِ، وبنى من حوله مساكِنَ حاشيتِهِ، واصطبلاتِ خيلِهِ، وخزائنَ لِلسِّلاحِ، وفي قاعاتِ هذا القصرِ الأميريِّ، كان سيفُ الدولة يعقدُ المجالِسَ التي يُدعى إليها أولئك الكبارُ من العُلماءِ والأدباءِ والشعراءِ، وتُثارُ فيها المُنَاقشاتُ العلمِيَّةُ والأدبيةُ واللغويةُ، ويُشارِكُ الأميرُ الحمدانيُّ فيها

أطيبَ المشاركَةِ، بثقافتِهِ الفنية، وحُسْنِ تمييزِهِ وتذوُّقِهِ للرائع من الشعر والنثرِ، كما كانتْ تُعْقَدُ في بعضِ ردهَاتِ قصرِ الحلبةِ مجالِسُ أخرى للأُنْسِ، لا يُدعى إليها غيرُ الخاصَّةِ من المُقَرَّبين إلى سيفِ الدولة، وهي مجالِسُ لِلغناءِ والشرابِ والقَصْفِ واللهوِ، كان الأميرُ الحمدانيُّ يعقدُهَا أحياناً، لِيَسْتجِمَّ بها و يستريحَ، بعد العودةِ من ميادينِ القِتالِ.

وهكذا ورثتْ حلبُ في ظلِّ سيفِ الدولة أمجادَ بغدادَ، وغدتْ أهمَّ مركزٍ للثقافةِ العربيةِ في القرنِ الرابعِ الهجريِّ.

شخصية الأمير الحمداني: صورة موجزة

بلغَتْ حلبُ في ظلِّ أميرِها الحمدانيِّ أوجَ تألُّقِها الحضاريِّ، والفضلُ في ذلك لشخصيةِ الأميرِ سيفِ الدولةِ، وهي شخصيةٌ ساحِرَةٌ، تفيضُ المصادرُ العربيةُ في الحديثِ عن مزاياها وخِصَالِهَا الحميدةِ، وتَغْمُرها بفيضٍ من الثناءِ، وهذا نموذجٌ منه، ننقلُهُ عن الثعالِبيِّ صاحبِ اليتيمةِ، وكان مفتوناً بشخصية سيفِ الدولة: «كان بنو حمدانَ مُلوكاً وأمراء، أوجهُهُم لِلصَّبَاحةِ، وألسنتُهُم لِلفَصاحَةِ، وأيديهم للسَّماحةِ، وعقولُهم للرَّجاحَةِ، وسيفُ الدولةِ مشهورٌ بسيادتِهِم، وواسطة قلادتهم، وكان ــ رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنَّةَ مأواهُ ــ غُرَّةَ الزَّمانِ،

وعمادَ الإسلامِ.. وغزواتُه تُدْرِكُ من طاغيةِ الرومِ الثارَ، وتحسمُ شرَّهم المُثارَ، وتُحسِّنُ في الإسلامِ الآثارَ، وحضرتُه مقصدُ الوفودِ، ومطلعُ الجودِ، وقِبلةُ الآمالِ، ومحطُّ الرحالِ، وموسمُ الأدباءِ، وحلبةُ الشعراءِ إلخ... ».

وقد أَسْهمَ شُعراءُ القرنِ الرابعِ، وفي مُقدِّمتِهم المتنبي وأبو فراس، في تقديمِ صورةٍ ساحِرَةٍ للأميرِ الحمدانيِّ و بطولاتِهِ وأمجادِهِ، تناقلتها عنهمُ الأجيالُ تلو الأجيالِ، حتى غدَتْ شخصيةُ سيفِ الدولةِ خالدةً في الضميرِ العربيِّ، تُذْكَرُ بالإعجابِ وتُحاطُ بهالةٍ من التقديرِ، والمستشرقون الغربيون الذين درسوا شخصيةَ الأميرِ الحمدانيِّ لم يقتصدوا في إعجابِهِم بِسِحْرِها، وقد حاول بعضُهم ـ وهو المستشرقُ الفرنسيُّ الأستاذُ بلاشيمر في دراستِهِ الجامِعَةِ عن

المتنبي ــ أنْ يقدِّمَ صورةً موضوعيةً لسيفِ الدولة، تجمعُ الجانبَ المضيء والجانبَ المظلمَ من شخصيتِهِ الآسِرَةِ، ولكنّه مع ذلك يعترفُ بأنَّ الصورةَ الحيةَ التي رسمها المستشرقُ شلومبرجر للأميرِ الحمدانيِّ (في كتابه عن الامبراطور البيزنطي نيسيفور فوكاس) هي في ملامِحِهَا العامَّةِ صادِقةٌ، وتمثِّلُ واقعَ سيفِ الدولة بأمانَةٍ، على الرغم من أنها تعكسُ ما يُحسّ به إنسانٌ غربيٌّ مفتونٌ بأميرٍ يُشبه أمراءَ ألفِ ليلةٍ وليلة، من إعجابٍ وَانْبِهارٍ.

يرى بلاشير أنَّ سيفَ الدولةِ كان يملكُ جُملةَ الخِصالِ التي تؤهلُ صاحِبَها للرياسَةِ في مُجتمعِهِ: وهي الشجاعةُ والسخاءُ وعظمةُ الروح، وكان يتمتَّعُ بجَلَدٍ وجراَةٍ فائقةٍ لا حدودَ لها، وكان يمتازُ من أبناءِ قومِهِ بإصْراره العنيدِ على تحقيقِ كلِّ ما يعزِمُ عليه،

من غيرِ أنْ يحسِبَ حساباً لما يكلِّفُهُ من تضحيات، وفي السنواتِ الأخيرةِ من حياتِهِ لم تَسْتطعْ كَثْرةُ أحزانِهِ على مَنْ فَقَدَ من أهلِهِ وأصفيائِهِ وأصحابِهِ، ولا الهزائمُ المتواليةُ التي مُنِيَ بها، ولا خياناتُ بعضِ قُوّادِهِ وغلمانِهِ له، أنْ تَنالَ شيئاً من عُنْفوانِ شجاعَتِهِ وصموده!

ويرى بلاشير أنّ سيفَ الدولةِ كان مُحارباً مقداماً شدِيْدَ الإندفاعِ، ولكنّه يُنكِرُ عليه أنْ تكونَ صفاتُ رُجلِ الحربِ الحقيقي مُتوفِّرَةً لديه، ففي كلِّ معركةٍ يصطدمُ فيها بخصم جادٍ يفرُّ أمامه (كما فرّ أمام القائدِ التركيِّ توزون، وأمامَ جيشِ كافور الأخشيديِّ، وأمامَ جيشِ نيسيفور فوكاس) وكلُّ مهارتِهِ في فن الحربِ تكْمنُ في مُباغتَةِ عدّوِهِ باندفاعٍ وحمِيَّةٍ، في هجماتٍ خاطِفَةٍ وجريئةٍ مع فُرْسانه،

والعودة بعد ذلك بالغنائمِ والأسلابِ، أما قَبْلَ الهجوم فإنَّه لم يكُنْ يُحسِنُ الأعدادَ له، و يُطيل التخطيط من أجله، وبعد النصْرِ لم يكنْ لِيهتمَّ بالحفاظِ عليه، وتأمينِ طريقِ العودةِ لجيشِهِ الظَّافِرِ، وهو في ذلك مثلُ كلِّ قائدٍ لا يُحسِنُ القيادةَ شديدُ العِنادِ، يركبُ رأسَهُ، ولا يُصْغي إلاّ لصوتِ نفسِهِ، ولا يستجيبُ لمَنْ ينصحُهُ بالحذَرِ والتبصُّرِ، و يُؤثر أنْ يتصرَّفَ دون مشورةِ أحدٍ، لئلا يُقالَ إنّه أصابَ برأي غيرِهِ، وهذه الصفاتُ الرديئةُ في أسلوبِ قيادتِهِ هي التي كلّفتْهُ في آخر حياتِهِ هزائمَ كثيرة مُتواليةً!

و يرى بلاشير في شخصيةِ سيفِ الدولة بعضَ المُتناقِضاتِ المثيرة: فهذا الفارِسُ المغوارُ الذي لم يكنْ يَملُّ خوضَ المعاركِ والحروبِ، في الجبال والصحارىٰ، و يُعاني الأهوالَ، من غيرِ أنْ يشكوَ

إنهاكاً ولا تعباً، لا صيفاً ولا شتاء، كان عندما يعودُ إلى عاصمتِهِ حلبَ، يُغْرِقُ نفسَهُ في حياةٍ باذخَةٍ حافِلَةٍ بنعيم الحياةِ وملذّاتِها، في قصرِ الحلبةِ، الشبيه بالحِصْنِ، حيثُ يعقدُ مجالسَ الأنْسِ، و يستسلم إلى حياة ناعمةٍ مُترفةٍ مُتحرِّرةٍ، عامرةٍ بوسائل اللهو والقصفِ والغناءِ، وللجواري نفوذٌ وسُلطانٌ عليه، ولواحِدةٍ منهن، وهي نصرانيةٌ من بناتِ بطارقة الروم، كان الأميرُ الحمدانيُّ أسرها في إحدى غزواتِهِ، تأثيرُها في نفسِهِ، فقد استطاعتْ أنْ تُثيرَ في قلبِهِ عاطفةً جيّاشةً، و يصفُ الثعالبيُّ تعلُّقَ سيفِ الدولةِ بجاريتِهِ الروميَّةِ هذه حتى أصبح «لا يرى الدنيا إلاّ بها، و يُشْفِقُ من الريح الهابَّةِ عليها».

و يَعْجَبُ بلاشير من تقلُّبِ شخصيةِ الأميرِ الحمدانيِّ بين الرحمةِ والقسوةِ: فسيفُ الدولةِ الذي

أعطىٰ إلى نصارى حلبَ جُثمانَ قسطنطين ابن القائدِ البيزنطيِّ برداس فوكاس، وقد مات في أسره، ليدفنوه، هو نفسُهُ الأميرُ الحمدانيُّ الذي أمر بذبحِ جميعِ الأسرىٰ من الروم، في نهايةِ إحدى معاركِهِ.

ويقفُ بلاشير طويلاً أمامَ الوَجْهِ الثقافيِّ والفكريِّ لشخصيةِ سيفِ الدولةِ، ويصفُ التألُّقَ الحضاريَّ الذي أصبحتْ مدينةُ حلبَ مركزاً له في ظلِّ أميرِها الحمداني، مما لا حاجةَ بنا إلى الوقوفِ عنده، بعد أنْ قدَّمْنا الكلامَ عليه قبل حين.

ونختِمُ الصورةَ التي نرسُمُها لشخصية سيفِ الدولةِ بإضافةِ هذا الجانبِ الإنسانيِّ الذي أشار إليه بلاشير، ويتمثَّلُ في تقديسِ الأميرِ الحمدانيِّ لوشائجِ القُربىٰ، ويدلُّ على التأثيرِ الكبيرِ للعصبيةِ القبليةِ في

نفسِهِ، فقد كان يُحِبُّ أمَّهُ كلَّ الحُبِّ، وكان ولاؤه لأخيه الأكبرِ ناصِرِ الدولة نادرَ المثالِ، وكان بيتُهُ ملاذَ عددٍ كبيرٍ من إخوته وأخواته وأبناءِ عمِّهِ، وكان يغمرُ الجميعَ بمودتِهِ ورعايتِهِ وسخائه.

تلك هي صورةٌ مُوجزةٌ لشخصيةِ أميرِ حلبَ الحمدانيِّ، وهي إطارٌ مُناسِبٌ لعرضِ الجانبِ الحربيِّ من حياته، وإبرازِ وقائع معركتِهِ الكبرى مع الرومِ عند أسوارِ ثغر الحدث.

أباطرة الروم وقُوّادهم في عصر الحمدانيين

لكي تتضحَ لأعيننا صورةُ المعركَةِ التي سيخوضُهَا سيفُ الدولةِ مع الرومِ عندَ أسوارِ الحدثِ، ينبغي أنْ نلقيَ الأضواء على الطرفِ الآخر، فنقدم فَرْشاً تاريخياً مُوجزاً عن الامبراطوريَّةِ البيزنطِيَّةِ في عصر سيفِ الدولةِ، ونعرّف بالأباطرةِ الذين جَرَتْ في عهدِهِمُ الحروبُ مع الحمدانيين، وكبارِ قادةِ الجيشِ البيزنطيِّ الذين خاضوا المعاركَ معهم، ونعرِض في لمحةٍ خاطِفَةٍ صورةً عن الجيش البيزنطي المُحَارِبِ، وقوّاتِهِ وتكوينها وتنظيمها، مثلُ هذا الإطارِ لا بُدَّ منه، لوعي وقائعِ المعركَةِ

الكُبْرى، وإدراكِ أهميتها لدى كلٍّ من الطرفين المتقابلين: العربيِّ والروميِّ، وتقديرِ النتيجة التي انجلتِ الحربُ عنها، بانتصارِ الفئةِ القليلةِ الصابرَةِ المُؤمِنَةِ، على الفئةِ الكثيرةِ الباغِيَةِ الكافِرَةِ، وتغلُّبِ جيشِ الإمارةِ الحمدانيةِ الصغيرةِ على جيشِ الامبراطوريَّةِ البيزنطِيَّةِ العَظيمَةِ، وهزيمتِهِ هزيمةً ساحِقَةً، تُشرِّفُ الحمدانيين، وتُلحقْ بالروم الخزي والعار.

لقد وقعتْ حروبُ سيفِ الدولةِ مع البيزنطيين في عهد ثلاثة من أباطرةِ الأسرةِ المقدونية، وهي الأسرةُ الحاكمةُ التي بلغَتِ الامبراطوريةُ في ظلِّها أوجَ عَظَمَتِها ومجدِها وسيادتها، وقد تمكَّنَتْ على الرغم من حروبها المتواليةِ مع المسلمين في الجنوبِ، والبُلغارِ في الشَّمالِ، من استعادةِ جزيرتي كريت

وقبرص وقسمٍ من الثغورِ في شَماليّ كيليكيا من المسلمين، وإخضاعِ البُلغارِ وفرضِ دينها ومدنيّتها عليهم، و يُقدِّرُ الباحثون أنَّ أمجادَ الأسْرةِ المقدونيةِ وفتوحاتها كان ينبغي أنْ تكونَ أضخمَ وأعظمَ، لولا الفتنُ الداخليةُ والصراعُ المدمِّرْ بين الكنيسةِ والقصرِ، طوال حكمها.

والأباطرةُ الثلاثةُ الذين عاصروا حروبَ سيفِ الدولةِ هم:

١ - قسطنطين البورفيري
(٣٠٠-٣٤٨هـ/٩١٢-٩٥٩م) وامتدَّ حُكْمُهُ قرابةَ نصف قرنٍ. وانتصاراتُ سيفِ الدولةِ على الروم كانتْ في عهدِهِ، و بينها معركةُ الحدثِ الكبرى عام ٣٤٣هـ.

٢ - رومانوس الثاني ابن قسطنطين

(٣٤٨-٣٥٢هـ/٩٥٩-٩٦٣م) خَلَفَ أباه، وهو شاب، فتزوج من تيوفانو الجميلةِ التي لعبتْ دوراً في حياة الامبراطوريةِ السياسيةِ، إذ مات زوجُها بعد أربعِ سنواتٍ مِن حُكْمِهِ، وهو في عُنْفُوانِ شبابِهِ، وتركَ أرملتَهُ الفاتنةَ الشابةَ وولديه منها وهما باسيل وقسطنطين، فتزوجها ينسيفور فوكاس، قائدُ الجيشِ الأعظمِ، وأصبح امبراطوراً.

٣ - تيسيفور فوكاس

(٣٥٢-٣٥٨هـ/٩٦٣-٩٦٩م) والمصادرُ العربيةُ تدعوه «نقفور الفقّاس» وهو من أسرةٍ أنجبتْ عدداً من كبارِ القادةِ للجيشِ البيزنطيِّ، فأبوه بارداس فوكاس، وأولادُ بارداس الثلاثةُ:

نيسيفور وليون وقسطنطين، بلغوا في قيادةِ الجيشِ أرفعَ المناصِبِ، وخاضوا مع الحمدانيين حروباً كثيرة، وحققوا في بعضها انتصاراتٍ مجيدةً، وقد أتاحتِ انتصاراتُ نيسيفور له أنْ يطمحَ إلى الفوزِ بعرشِ الامبراطوريةِ، وحقَّقَ طموحَهُ بعد وفاةِ الامبراطورِ رومانوس الثاني بزواجه من أرملتِهِ تيوفانو التي أحبّها، ولكنها ما لبثتْ أنْ تآمرتْ على اغتيالِهِ مع قائدٍ آخر من كبارِ قادةِ الجيشِ وهو «جون زيمسكس» فقتله، ونفى الأرملةَ الفاتنةَ من القسطنطينية، وأصبح الامبراطورَ الجديدَ، في عام ٣٥٨ هـ/٩٦٩م بعد سنتين من وفاةِ الأميرِ الحمدانيِّ سيفِ الدولةِ.

أمّا قادةُ الجيوشِ البيزنطيةِ الذين خاضوا

الحروبَ مع سيفِ الدولةِ فأهمهم ينسيفور فوكاس وكان دمستقاً، وهي الرتبةُ التي يناها القائدُ الأعظمُ في بَلاطِ القسطنطينية، وهو الذي حارب الحمدانيين قائداً أعظمَ ثم امبراطوراً، وكانتِ الحربُ بينه وبينِ سيفِ الدولةِ سِجَالاً، مُدَّةَ عشرين عاماً، وأسمُهُ (الدمستق نقفور الفقّاس) يُذكرُ كثيراً في المصادرِ العربيةِ، وفي قصائدِ شعراء ِسيفِ الدولةِ، وهو من أسْرةٍ مَنَحتِ الجيشَ البيزنطيَّ عدداً من كبار قادتِهِ في عصر الحمدانيين، فأبوه الدمستق برداس فوكاس، وأخوه ليون فوكاس، وكان دمستقاً أيضاً، وله أخٌ ثان ٍوهو قسطنطين فوكاس، وهو الذي أسرَهُ سيفُ الدولةِ، ومات في الأسر، في عُنْفُوانِ شبابِهِ، فسلّم الأميرُ الحمدانيُّ جُثمانَهُ إلى نصارى حلبَ، فلفُّوه بأكفان ٍثمينةٍ، وأدرجوه في ضريحٍ من أَضْرِحَةِ كنائسهم، وكتب إلى أبيه كتاباً حزيناً يُعزّيه به،

وستَرِدُ أسماءُ القادةِ البيزنطيين من أسْرةِ فوكاس في معركةِ الحدثِ الحمراء، والمعركةِ التي سبقتْها، وكان القائدُ الأعظمُ في المعركتين الدمستقَ برداس فوكاس، وكان أولادُهُ في جُملةِ أركانِ حربِهِ، كما كان في البطارقة من القُوَّادِ عددٌ من ذوي قُرباه، وسنشيرُ إليهم في عرضنا لوقائعِ المعركةِ.

ومن قادةِ الجيشِ البيزنطيِّ في حروبِ سيفِ الدولةِ جون زيمسكس (ويسمى يوحنا تزيميسيس) وهذا الذي اغتال الامبراطورَ نيسيفور، وحلَّ في العرشِ محلَّهُ، كما قدّمنا، وكان قد خاض عدداً من الحروبِ ضدَّ الحمدانيين، والمصادرُ العربيةُ تُسمِّيه (يانس بن شمشقيق) وقد وَرَدَ اسمُ الشمشقيق في شعرِ المتنبي وأبي فراس. ويذكر المؤرخُ العربيُّ ابنُ العديم في تاريخِ حلبَ أسماءَ عددٍ من القادةِ

البيزنطيين الذين أسرهم سيفُ الدولةِ في غزواتِهِ للروم، ولا نرى حاجةً لذكرِهِم، لما في أسمائهم من تصحيفات كثيرة من نحو، ولاقتِصَارِنا على أسماءِ القَادةِ الذين لهم صِلَةٌ بمعركَةِ الحدثِ الكُبرى، والمعركةِ التي سبقَتْهَا ومهَّدَتِ السبيلَ إليها.

بقي علينا أنْ نُقدِّمَ صورةً للجيشِ البيزنطيِّ الذي كان يُحاربُ سيفَ الدولةِ، وقد كان جيشُ الامبراطوريَّةِ في ظلِّ الأسرةِ المقدونية في أوجِ قوتِهِ وتنظيمِهِ، وكان على رأسِ مُحاربيه قُوادٌ عِظَامٌ، وقد قدَّمْنا أسماءَ بعضِهِم، وكان عددُ الجيشِ يَزيدُ على مائتي ألفِ مُقاتِلٍ، ويتألفُ من أممٍ شتى وجنودٍ مُرْتَزقَةٍ، من بيزنطيين وسلاف وأرمن وبلغار وروس وصقالبة، وعرب أيضاً ــ كما تؤكِّدُ بعضُ المصادرــ وكانتْ وسائلُ الدفاعِ عن الامبراطوريةِ مُنظَّمةً

أيضاً، وكانتْ أنباءُ تحرُّكاتِ الجيوشِ العربيةِ وغاراتِها على الثغورِ الروميةِ تَصِلُ من جنوبيِّ المملكةِ إلى القسطنطينية عن طريقِ العلاماتِ الناريَّةِ التي تُوقدُ على رؤوسِ الجِبالِ، ويتمُّ التراسُلُ برموزِها، فتصلُ الأنباءُ من حدودِ جِبالِ طوروس إلى العاصمة البيزنطية في ثلاثِ ساعاتٍ! وكان الجيشُ البيزنطيُّ يمتلكُ السلاحَ الوفيرَ، والموادَّ المدمَّرَةَ كالنارِ اليونانيةِ التي تُحدِثُ دُخاناً وانفجاراً وتُشعلُ الحرائقَ السريعةَ، ولا تنطفىء بِمُلامَسَةِ الماءِ، ولا يُخمِدُها إلاّ الرملُ والخلُّ، وقد احتفظ البيزنطيون بسرِّ هذه النارِ قُروناً طويلةً، واستغلوها في حروبهِمُ البحريَّةِ مع العرب، وكان الامبراطورُ البيزنطيُّ قسطنطين البورفيري الذي وقعتْ في عهدِهِ معركةُ الحدثِ الحمراء يَزْعمُ أنَّ أصلَ هذه النارِ يرجِعُ إلى الوحي

الإلهي، وأنَّ سرَّها حمله ملَكٌ من السَّماءِ إلى الامبراطورِ قسطنطين الأولِ! وأنَّ على البيزنطيين ألاَّ يبوحوا بسرِّها، لأنَّ هذا التكتمَ فرضٌ من السماء.

وكان الجيشُ البيزنطيُّ يمتلكُ الدبّاباتِ (التي يختبىء الجندُ بداخلها ويقتربون من الأسوارِ لدِكّهَا) والمنجنيقاتِ والعرَّاداتِ (وهي منجنيقاتٌ صغيرةٌ لرمي الحجارةِ وغيرِها) كما كان لدى البيزنطيين اسطولٌ حربيٌّ يخوضُ البحارَ، ويحمي حدودَ الامبراطورية ويردُّ عنها غاراتِ أعدائِهَا.

وعندما نُقارِنُ بين عظمةِ الجيشِ البيزنطيِّ وأعداده وأسلحته وتنظيمه، والجيشِ الحمدانيِّ الذي كان يتصدى له، ويُوقعُ به المرَّةَ تلو المرة، يهولُنا الفرقُ الكبيرُ، ويتملّكنا العَجَبُ؛ وندركُ خطورةَ الدَّورِ البطوليِّ الذي نهض به الحمدانيون في تصدِّيهم

للجيوشِ البيزنطيةِ الزّاحفةِ، وتحدّيهم لها، وتمكّنِهم من الإيقاعِ بها أحياناً، على الرغم من عَدَمِ التكافؤِ بين الطرفين، والتفاوتِ الكبيرِ في العَدَدِ والسلاحِ والتجهيزات، فالإمَارةُ الحمدانيةُ الصغيرةُ لم تكنْ قادِرَةً على تعبئةِ جيوشٍ ضخمةٍ جرّارةٍ كالتي كانتِ الامبراطوريةُ البيزنطيةُ الغنيةُ قادرةً على تعبئتها وتجهيزِها وسوقها إلى ميادين القِتالِ: ففي حين كانتْ أعْدادُ الجيوشِ التي يجهِّزُها سيفُ الدولةِ ويوجهها إلى مُحاربةِ الروم مع قُوّادِهِ وغلمانه، لا يتجاوزُ محاربوها عشرةَ آلافٍ (مثل الجيش الذي سيّرَهُ مع غلامه نجا إلى ديارِ بكرٍ للتصدي للروم بقيادة يانس بنِ شمشقيق عام ٣٤٧هـ) كان الامبراطورُ البيزنطيُّ يوجّهُ الدمستقَ نيسيفور فوكاس إلى قتالِ الحمدانيين بأعدادٍ هائلَةٍ لا تقلُّ عن مائةِ ألف، وفي عام ٣٥٠هـ زحف نيسيفور الدمستقْ

بجيشٍ يُقدِّرُهُ مؤرخُ حلبَ ابنُ العديمِ بأكثرَ من ربعِ مليونِ مُحاربٍ: «عدةُ رجاله مائتا ألف فارس، وثلاثون ألف راجل بالجواشن (الدروع)، وثلاثون ألف صانع للهدم (لتدمير الحصون والأسوار) وتطويق الثلج (تعبيد الطريق وإزالة الثلوج أمام زحف الجيش) وأربعة آلاف بغل عليها حَسَكُ الحديد يطرحه حول عسكره ليلاً (وهو سلاحٌ يسدُّ مَسَدَّ الأسلاكِ الشائكَةِ والألغامِ التي تزرعُ في طريقِ العدوِّ، فتعطب أقدامَ الجندِ المُشاةِ وسنابكَ خيلِ الفُرْسانِ عندما تدوسُ فوقها)» ولم يذكرِ ابنُ العديمِ الأسلحةَ الجماعِيَّةَ التي كان جيشُ نيسيفور العظيمُ يمتلِكُهَا، ليدكَّ بها أسوارَ الثغورِ الحَصِينةِ ويهدم المُدُنَ ويحرقُها: كالنَّارِ اليونانيةِ، والمنجنيقاتِ والعرّاداتِ، والدباباتِ العِمْلاقَةِ وسائرِ آلاتِ الحِصَارِ التي عرفتها الحروبُ في العصورِ الوسطى، وقد دوَّخَ نيسيفور بهذا

الجيشِ البيزنطيِّ الضخمِ بلادَ الإسلامِ، كما يقولُ ابنُ العديمِ، وانتزع من أيدي المسلمين جُملةً من المدنِ والحُصُونِ والمعاقل، وفي عام ٣٥١هـ حطَّ على حلبَ، كالكبسةِ في هجومٍ مُفاجىء، وسيفُ الدولةِ فيها، لم يشعر إلاّ والجيشُ البيزنطيُّ يُحاصِرُ حاضِرةَ إمارتِهِ بأعدادِهِ الهائلَةِ وتجهيزاتِهِ الضخمةِ التي ذكرناها، وقد أيقن الأميرُ الحمدانيُّ بحرج الموقف، ولم يكنْ معه من عسكره أكثرُ من أربعةِ آلافِ، أوقع البيزنطيون بهم وبمَن انضمَّ إليهم من المقاتلين من سُكَّانِ حلبَ، ونجا سيفُ الدولةِ على فرسِهِ حتى ابتعد عن حلبَ، وأقام نيسيفور على حِصَارِ المدينةِ أربعةَ أيامٍ، يطلبُ تسليمَ الأميرِ الحمدانيِّ إليه، وكان يظنه ما يزالُ فيها، وكان حريصاً على أنْ يأخذَهُ أسيراً، ليحملَ إلى القسطنطينية أكبرَ عدوٍّ للامبراطورية ذليلاً في الأغلال؛ وكان قد أعلن في

قُوّادِهِ: «لا أريده قتيلاً، بل أريده أسيراً، فأيكم كانتْ له القُدْرَةُ على أسرِهِ منحته مُقَاطعةً كامِلَةً!».

وكان لا بُدَّ لعاصِمَةِ سيفِ الدولةِ أنْ تسقطَ في يد نيسيفور الحاقد، فأباح المدينةَ لجيشِهِ الزاخر: نهباً وقتلاً وسبياً وتهديماً للأسواق وإحراقاً للمساجد وأكثر الدور، وَاحْتَمَلتْ حلبُ كارِثَتَها بصبرٍ وشجاعَةٍ، وعزاؤها أنَّ أميرَها الذي لم تستطعْ أَيَّةُ هزِيمةٍ من قَبْلُ أنْ تَسْحَقَ عزيمَتَهُ واصرارَهُ على العودةِ إلى ميادينِ القِتالِ من جديد، لموالاة الصمودِ في وَجْهِ الخطرِ البيزنطيِّ المُتزايدِ، قد نجّاه اللهُ بمشيئتِهِ، وأنّه لا بُدَّ عائدٌ لصدِّ الزحوفِ البيزنطية ودحرِها، وإحرازِ الانتصاراتِ المتواليةِ عليها، كما كان ذلك شأْنُهُ طوالَ السنواتِ العَشْرِ الماضية، حتى كاد يصل يوماً إلى أبواب القسطنطينية!

ومن أين للعاصِمَةِ الحمدانية أنْ تُدْرِكَ أنّ إمارة سيفِ الدولةِ الصغيرةِ عاجزة وحدها عن مواجهةِ زحفِ القُوَّاتِ البيزنطيةِ الهائلةِ، بما تملكه من إمكانات ضَخْمةٍ، وأنَّ الكارثةَ التي حلَّتْ بها إنما هي بدايةُ النهايةِ للنسْرِ الحمدانيِّ وأمجادِهِ الحربيةِ العظيمةِ، وانتصاراتِهِ الكُبْرى حول أسوارِ مرعش والحدث والثغورِ الإسلامية الأخرى: فقد دمّر نيسيفور وَكْرَ النَّسْرِ وهدَّمَهُ، وخرَّبَ قصرَ الحلبة وأحرقه، ونهب كلَّ ما كان سيفُ الدولةِ جمعه فيه من أموالٍ وأسلحةٍ ومتاعٍ وخيلٍ، وتآمر على النَّسْرِ غلمانُهُ وخانه كثيرٌ منهم، وأسر البيزنطيون عدداً كبيراً من قَادةِ الجيشِ الحمدانيِّ وأبطالِهِ (كأبي العشائرِ وأبي فراسٍ ومحمدِ بنِ ناصِرِ الدولةِ) ورجالِ دولتِهِ وحاشيتِهِ. فهيضَتْ أجنحةُ النَّسْرِ، وفَقَدَ تلك الصولَةَ التي كانتْ تُرْهِبُ أعداءَهُ، فطمعوا فيه، وعما

فريب تتكاثرُ عليه العِلَلُ، ويُرهِقُهُ استرخاء مفاصِلِهِ، ويُلزِمُهُ الفالجُ أنْ يُحْمَلَ في قبة (كالمحفَة) وقد وهن عزمُهُ، وتضعضع مُلْكُهُ، وآذنتْ شمسُهُ بالزوالِ القريب!

حروب الحمدانيين مع الروم قبل معركة الحدث

كانتْ لسيفِ الدولةِ وقائعُ مع الروم، قبل أنْ يقيمَ إمارتَهُ المُسْتقِلَّةَ في شَماليِّ الشامِ ويتحمَّلَ عبء الدفاعِ عنها، إذ يذكر المؤرخُ (أسد رستم) في كتابه (الروم) أنَّ الحمدانيين أثقلوا كاهلَ العشائرِ العربيةِ الضاربَةِ في الجزيرةِ، وهي تابعةٌ لحكمهم، بالضرائب، وبين هؤلاء بنو حبيب، وهم من تغلبَ مثلُ أبناءِ عمِّهِمُ الحمدانيين، فانتقل منهم عَشَرَةُ آلافِ فارسٍ بنسائِهِم وأولادِهِم وعبيدِهِم، والتجأوا إلى الروم من قَهْرِ ناصِرِ الدولةِ الحمدانيِّ وتعسُّفِهِ،

وتنصَّرُوْا، وحذا حذوهم غيرُهُم من عشائرِ الجزيرةِ!
والحقُّ أنَّ المؤرخين ينعون على الحمدانيين جورَهُم
على الرَّعيةِ بالجباياتِ وأخذِ الأمْوالِ، و يعدُّون ذلك
من عيوبهم الفادحةِ، التي لا يغفرُهَا التاريخُ لهم،
وقد كان سيفُ الدولةِ يصادرُ الأموالَ، وكان قاضيه
على حلبَ أبو حصين الرقى يُعينُهُ على أخذِها،
و يفتحُ له أبوابَ الظُّلْمِ، ولا ريبَ أنَّ حروبَ
سيفِ الدولةِ كانتْ تكلِّفُهُ أموالاً لا حدَّ لها، ولكنّ
المؤرخين ينعون عليه إسرافَهُ و بذْخَهُ، حتى أنّ قصورَهُ
بحلبَ كانتْ تبذُّ قصورَ الخلفاءِ في بغدادَ، وتفوق
قصورَ البيزنطيين في القسطنطينية بذخاً وترفاً! و يبدو
أنّ الورودَ اليانِعَةَ التي تَنْفَخُ بعطرِها ربيعَ الإنسانِ لا
بُدَّ أنْ يكونَ بين أوراقِها الخُضرِ بعضُ الأشواكِ!
ومهما يكنْ فالأشواكُ الحمدانِيَّةُ الجائرةُ آذتْ بني
حبيب وغيرهم، فالتجأوا إلى الرومِ، وتوتَّرَتِ

العلاقاتُ بين الحمدانيين والروم إثر ذلك، وبدأ سيفُ الدولةِ يغزو أرضَ الرومِ، وفي عام ٣٢٧هـ كسب أولَ نَصْرٍ له عليهم أمامَ حِصْنِ زيادٍ، وبعد عام هاجم الرومُ الكرجَ في القوقاس، فاستنجد هؤلاء بالحمدانيين، فهبَّ سيفُ الدولةِ وأغاثهم، وأجلى الرومَ عن بلادِهِم، وبعد عام آخر اجتاز سيفُ الدولةِ الحدودَ واستولى على عَدَدٍ من الحُصُونِ الروميةِ، وأصبح زعيمَ الجِهادِ الأكبرِ في العالمِ الإسلاميِّ، وعدوَّ النصرانيةِ عند الروم!

وعندما ملك سيفُ الدولةِ حلبَ وأقام إمَارتَهُ المستقِلَّةَ في شَماليِّ الشامِ عام **٣٣٣** هـ سارَتِ الرومُ إليها، فخرج إليهم وقاتلهم بالقرب منها، وظفر بهم وقتل منهم، ثم بَلَغَهُ أنَّ الدمستقَ قد أَوْقَعَ بأهلِ بغراس ومرعش، قُرْبَ أنطاكِيَّةَ، فأسرع الأميرُ

الحمدانيُّ إليه، وأوقع به، وفي عام ٣٣٥هـ تمَّ تبادُلُ الأسرى بين الرومِ والحمدانيين، على يدِ نَصْرٍ، أميرِ الثغورِ من قِبَلِ سيفِ الدولة.

وفي عام ٣٣٧هـ خرج الرومُ من ملطية وسميساط، واتجهوا نحوَ الجزيرةِ ليستولوا على ممرِّ الحدَثِ ــ مرعش، فهبَّ سيفُ الدولةِ إلى لقائِهِم، وصمد في وَجْهِ جيشِهِم في معركةِ جلباط التي ورد ذكرها في قصيدةٍ لأبي فراسٍ. ولكنَّ الرومَ كانوا كَثْرَةً كاثِرةً، فتغلّبوا وملكوا مرعش، ونهبوا طرسوس، وسار سيفُ الدولةِ إلى ميافارقين، واستخلف على حلبَ ابنَ أخيه محمدَ بنَ ناصِرِ الدولة، ودخل عام ٣٣٨هـ وكان الجيشُ البيزنطيُّ بقيادةِ الدمستق ليون بنِ برداس فوكاس استطاع أنْ يُحاصِرَ ثغرَ الحَدَثِ، وأنْ يدخلَهُ ويُخرِّبَ حُصُونَهُ، ثم

ولّى وجهَهُ شطرَ اللاذقيةِ، فهاجم (بوقا) في شماليّها، وخرج إليه محمدُ بنُ ناصرِ الدولة، ولكنّه لم يستطعْ أنْ يصمدَ للدمستقِ، وقُتِلَ من جيشِ الحمدانيين زُهاء أربعمائةِ رجلٍ، وأسر الرومُ خَلْقَاً كثيراً منهم.

وفي عام ٣٣٩هـ قامت في ربيعِهِ مفاوضاتٌ بين الحمدانيين والرومِ للتهادُنِ، وجاء وفدٌ بيزنطيٌّ للتفاوضِ من أجلِ الهدنةِ، وكاد يتمُّ الاتفاقُ لولا قتلُ واحدٍ من أعضاءِ الوفدِ، قتله مروانُ القرمطيُّ في جيشِ سيفِ الدولة، ورفض الأميرُ الحمداني تسليمَ القاتِلِ، وانقطعَتِ المفاوضاتُ، ورجع سيفُ الدولة إلى حلبَ يَسْتعِدُّ للقِتالِ، ويتهيأ لِلقِيامِ بغزوةٍ للروم، في قلبِ الأناضول، فجمع جيشاً من ثلاثين ألفِ مقاتِلٍ، وسار نحو مرعش، وفي صُحْبَتِهِ ثلاثةُ شعراء:

أبو الطيب المتنبي، وأبو فراس الحمداني، وأبو زهير المهلهل، وانضمَّ إلى جيشِهِ أربعةُ آلافِ مُقاتِلٍ من طرسوس، وتدفَّقَ عليه المجاهدون من الثغورِ الأخرى، ودخل بجموعِهِ من طريقِ ملطية، حتى بلغ مدينةَ سمندو وَسَطَ بلادِ الرومِ، في شَماليِّ طريقِ مرعش إلى قيصرية، وهو يقتلُ و يسبي والرومُ يفرُّونَ أمامَهُ، واحتلَّ مدينةَ صارخة وأحرق ربَضَها وكنائسَهَا، واتَّجَهَ إلى مدينةِ خرشنة، بين قيصرية وسيواس، فأحرقها وأحرق ما حولها، وكان الجيشُ البيزنطيُّ قد تجمَّع في مِنْطَقَتِها بقيادةِ الدمستق ليون بن برداس فوكاس، والتحم الجيشانِ في معركةٍ حاميةِ الوطيسِ في بطن اللقان، كان فيها النَّصْرُ المؤزَّرُ للحمدانيين على الرومِ، فقتلوا منهم خلْقاً كثيراً، وأَسَرُوا من كِبَارِ قادتِهِم و بطارقتهم أكثرَ من

ثمانين، وهرب الدمستقُ ناجياً بنفسِهِ، وقد هُزِمَ أقبحَ هزيمةٍ، وغنم المسلمون ما لا يُوصفُ من الأسلابِ والغنائمِ، واستمرُّوا في الغَزْوِ أشهراً، وعند انتهائِهِ، كان المسلمون مُثْقلين بالغنائمِ وأعْدادِ الأسرى، وأعلنَ الأميرُ الحمدانيُّ أمرَهُ بالقُفولِ، وتفرَّقَتْ جموعُ جيشِهِ في الدروبِ، ورجع المُقاتِلَةُ من أهلِ طرسوس نحو ثغرِهِم، ورجع المجاهدون والعربان نحو قواعِدِهم وقبائِلِهِم، وقفل سيفُ الدولةِ بالجيشِ الحمدانيِّ مُنْتشِياً بما حقَّق من ظَفَرٍ، أَوْغَلَ فيه في أعماقِ الأناضولِ حتى بلغ في غزوِهِ نقطةً لا تبعد عن العاصمةِ البيزنطية بأكثرَ من مسافةِ سبعةِ أيامٍ!

ولكنّ هذا النصرَ العظيمَ كان مُقدّراً له أنْ ينقلِبَ إلى هزيمةٍ مُذْهِلَةٍ، بل إلى كارثةٍ حقيقيةٍ، حتى سُمِّيَتْ هذه الغزوةُ «غزاة المصيبة» لما حلَّ بالجيشِ

الحمدانيِّ وأبطالِهِ في نهايتها: فقد كان الرومُ يكمنون للأميرِ الحمداني وجيشِهِ المُظَفَّرِ العائدِ في مَضِيقٍ صَعْبٍ من مضائق جبال طوروس، ومرَّتْ طلائعُ الجيشِ الحمدانيِّ، فلم يُحرِّكِ الكمينُ ساكناً، ثم سدُّوا الطريقَ بالحجارةِ والأشجارِ التي قطعوها، فلمّا وصل سيفُ الدولةِ وجد الممرَّ في المضيق مسدوداً، وراحَ الرومُ يمطرونَهُ وجيشَهُ بالصخورِ، يُدهدِهُونَها عليه، ويمطرونه بالسهام، وانقضَّ الدمستقُ على مُؤَخِّرةِ الجيشِ، وقد تمَّ حِصَارُ المسلمين من كلِّ جانبٍ، وقد بانتْ لسيفِ الدولةِ خطَّتُهُم في إبادةِ الجيشِ الحمدانيِّ إبادةً كامِلَةً، وقد سقط عددٌ كبيرٌ من المسلمين قتلى، وقد سَحَقَتْهُمُ الصخورُ، وأَسَرَ الدمستقُ من المسلمين خَلْقاً عظيماً، وتمكَّنَ سيفُ الدولةِ رغم الأهوالِ والبلاءِ والحِصَارِ من اجتيازِ الممرِّ الجبليِّ والوصولِ إلى أعلى الجبلِ، فوجد الرومَ

قد قطعوا عليه العقبة، فاضطر إلى سلوكِ طريقٍ وعرةٍ جداً مع أدلائه، فلحق به الرومُ، فلم يجدْ مَفَرّاً من التخلُّصِ مما يُثقِلُ كاهِلَهُ و يُقيِّدُ حركتَهُ: فأمر بقتلِ الأسرى، وكانوا قُرابةَ أربعمائةِ أسيرٍ روميٍّ، فضربَتْ أعناقُهُم، وأمر بعَقْرِ جمالِهِ وكثيرٍ من دوابِّهِ فتخلَّصُوا منها، وأحْرِقتِ الأثقالُ والأمتعةُ، وقاتل سيفُ الدولة قتالَ الموتِ، وقد تفرَّقَتْ جموعُ جيشِهِ عنه، حتى تمكَّنَ أخيراً من النجاة، في نفرٍ يسيرٍ من خاصَّةِ أصحابِهِ، وما سلم إلاّ على ظهرِ فرسِهِ، وقد رآه الرومُ فعرفوه، وطَلَبوه، وحصروه في جبلٍ عالٍ، تحته نهرٌ، فخاف أنْ يأسروه إنْ وقف أو رجع، فضرب فرسَهُ بمهمازِهِ، وأهوى به في مياهِ الوادي، في قفزةٍ انتحاريَّةٍ يائسةٍ، ولكنَّ اللهَ شاء أنْ يقعَ الفرسُ قائماً، وأنْ ينجوَ بفارِسِهِ البطلِ من الموت، وقد سمَّى المستشرقُ شلومبرجر الغزوةَ لذلك (غزوةَ القَفْزَةِ)،

واستولى البيزنطيون على ما لا يُحصى من الآلاتِ والأمْوالِ، وقد وَصَفَ المُتنبي أهوالَ تلك المعركةِ وَصْفَ شاهدِ عيانٍ عانى بنفسِهِ مراحِلَهَا، من الانتصاراتِ العظيمةِ في البدايَةِ إلى أنْ تحوَّلتْ إلى هزيمةٍ في النهاية، فذكر جُمْلَةَ انتصاراتِهِ المُظفَّرةِ وإيقاعَهُ بالجيوشِ الروميةِ، وما أصاب الرومَ وحُصُونَهُم على يديه من سبيٍ وقتْلٍ ونَهْبٍ وتحريق:

حتى أقام على أرباض خَرْشَنةٍ
تشقى به الرومُ والصُلبان والبِيَعُ

للسبي ما نكحوا والقتلِ ما وَلَدُوا
والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وأثنى المتنبي على ثباتِ سيفِ الدولة وصموده في وَجْهِ الأهوالِ، وقد شَهِدَ ذلك بأم عينيه، في حين الأبطال أدركَهُمُ الخوفُ وامْتَقَعَتْ منهمُ الوجوه:

وقد حمدتُك في هول ثبتَّ له
حتى بلوتُكَ والأبطال تمتقعْ

وحمل المتنبي على خَوَرِ الذين استسلموا للأسْرِ من الجيشِ الحمدانيِّ وعدَّهُم خونةً مُتخاذِلين، جازاهُمْ اللهُ على تخاذُلِهم وانحلالِ عزائهم في الحربِ، ووَصَفَهم بأنَّهم أموات ٌلا يأكُلُهُم إلاَّ الضباعُ التي لا تعفُ عن الجِيَفِ:

قل للدمستق إنَّ المسلمين لكم
خافوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
لا تحسبوا مَن أسرتُم كان ذا رَمَقٍ
فليس يأكلُ إلا الميتةَ الضَّبُعُ

غيرَ أنَّ هذه الهزيمةَ ـ الكارثةَ لم تَسْحَقْ عزيمةَ سيفِ الدولةِ، ولم تَدَعِ اليأسَ يستولي على قلبه، فعاد

إلى حلبَ يستعِدُّ للحربِ من جديدٍ، ويجمعُ الجموعَ لذلك، وفي عام ٣٤١هـ خرج إلى الثغورِ الإسلاميةِ لِيتفقَّدَها، و يُرمِّمَ أسوارَها، و يبني المُتهدِّمَ من حُصُونِهَا، و يقوِّيَ عزيمة حامِيَاتِها وأهلِيها على المُقاوَمَةِ والصمود، وقَصَدَ مرعش لِيُعيدَ بناءب أسوارِها، و يُغيثَ أهلَ الثغورِ المنكُوبَةِ و يُعينَ الفقراءَ منهم، وأتاه الدمستقُ عندَ أسوَارِ مرعش، لِيمنعَ من تجديدِ تَحْصِينِ المدينةِ و بناءِ أسرَارِها، فأوقع به سيفُ الدولةِ وقعةً عظِيمةً مَشْهُورةً، كما يقولُ مؤرخُ حلبَ ابنُ العديمِ، وولّى الدمستقُ هارباً، وتمَّمَ سيفُ الدولةِ وجيشُهُ بناءَ عمارتِها وتحصينَهَا، وعلا صوتُ المتنبي يُمجِّدُ النَّصْرَ و يَسْخرُ من هزيمةِ الدمستقُ الذي:

أتى مرعشاً يستقربُ البُعد مُقبلاً
وأقبل إذ أدبرتَ يَسْتبعدُ القُربا

ولـكـنـه ولّـى وللـطـعـن سَـوْرَة (١)

إذا ذَكَـرَتْـهـا نـفـسُـهُ لَـمـسَ الجَنْبا

وخـلّـى العذارى والبطاريق والقُرى

وشُعثَ النصارى والقرابينَ[٢] والصلبا

ومن قول المتنبي هذا نعلمُ أنّ سيفَ الدولةِ راح يُطاردُ الدمستقَ وجيشَهُ بعد هزيمتِهِ عندَ أسوار مرعش، وقد فرَّ الرومُ أمامَ الحمدانيين، وخلَّفُوا القُرى البيزنطية خلْفَهُم للمسلمين، يجتاحونها و يأسرون العذارى من نسائها، و يَقْتُلُونَ قادتَها (البطاريق) و يَطْـرُدُونَ سكَّانَها النصارى، ويهدمون كنائِسَهُم.

---

(١) سطوةٌ وسلطان.

(٢) جمع قربان: ما يُتقرّب به إلى الله من ذبيحة وغيرها.

وفي أواخر عام ٣٤١هـ يتِمُّ تبادُلٌ للأسرىٰ بين الحمدانيين والروم، فقد أرسل مَلِكُ الروم وفداً إلى أميرِ حلبَ ــ بعد معركةِ خَرْشنةَ ووَقْعَةِ مرعش ــ للتفاوُضِ بشأنِ الفِداءِ، ولطلب الهُدْنَةِ، وقد وصف المتنبي استقبالَ سيفِ الدولة للوَفْدِ، في احتفالٍ حاشِدٍ، في قصرِهِ بحلبَ، كما وَصَفَ انبهارَ الوَفْدِ وهو يجتازُ صفَّ الحرسِ في الطريقِ إلى الأميرِ المتصدِّرِ على عرشِهِ:

فأقبل يمشي في السماط فما درى
إلى البحر يمشي أم إلى البَرِّ يرتقي

لِيلتمِسَ الموافَقَةَ على قيامِ هُدْنَةٍ مُؤقَّتةٍ بين المسلمين والرومِ، وبيد سيفِ الدولة أنْ يُجِيبَ أو يرفُضَ:

فإنْ تُعطِهِ بعضَ الأمانِ نسائلٌ

وإنْ تُعطهِ حدَّ الحسام فأخْلِقِ [1]

ويبدو أنّ إمارةَ سيفِ الدولةِ كانت يومذاك بحاجةٍ إلى تلك الهدنةِ مع الروم، لِتصفِيَةِ بعضِ الفِتنِ والقلاقلِ الداخلية والقضاءِ عليها، فوافق الأميرُ الحمدانيُّ على قيامِ الهدنةِ، ولكنها لم تستمرَّ طويلاً، في جمادى الثانية من عام ٣٤٢هـ قصد سيفُ الدولةِ مع جيشٍ من فُرْسانِهِ إلى ديارِ بني مضر، ليقضيَ على شَغَبِ بعضِ القبائلِ البدويةِ حول مدينتي الرُّها وحَرَّان، وهم من بني عقيل وقشير وعجلان، وبعد أنْ أعاد الأمنَ إلى المِنْطَقَةِ، وأخذ من تلك القبائلِ المتمرِّدَةِ رهائنها لضمانِ طاعَتِها،

(١) إنْ ترفض مهادنته وتصر على محاربته، فهو مستحقٌ لذلك.

واطمأنَّ إلى ذلك، وقرر العودةَ إلى حلبَ، بلغه أنَّ الرومَ قد جمعوا حُشودَهم في ملطية، للغارة على الثغورِ الإسلاميةِ، فوجبَ عليه أنْ يتصدى لهم قبل أن يداهموها، وهكذا شهد عام ٣٤٢هـ سِلْسِلَةً من المعاركِ الطاحِنَةِ بينَ الحمدانيينَ والبيزنطيين عند الثغورِ، وهي تُعَدُّ بحقٍّ مُقدِّمةً للمعركةِ الفاصِلَةِ الكُبرى التي ستجري وقائعها بينَ الطرفينَ بعد عام عند أسوارِ ثغرِ الحدث، وسنفصلُّ الكلامَ على تلك المعاركِ التي مهَّدَتْ لمعركةِ الحدثِ الحمراء، وكانت أحداثُها السببَ المباشر لنشوبها.

معارك وأحداث مهّدت للمعركة الكبرى

لم يرجعْ سيفُ الدولة إلى حلبَ بعد أنْ أعادَ الأمنَ إلى ديارِ مضر وآثر أنْ يعبرَ الفُراتَ إلى أرضِ الروم، ليتصدّى للحشودِ البيزنطية التي جاءهُ خبرُها، وقد قطع النهرَ إلى مدينةِ دلوكَ (قرب مدينة عين طاب الحالية) وصعد شَمالاً نحو الشرقِ حتى بلغ النهرَ الأزرقَ (كوك صو حالياً) فعَبَرَهُ إلى صنجة، وقطع طوروس من دَرْبِ القلةِ، جنوبيَّ ملطية، وأغار على زِبَطْرَةَ وعَرْقَةَ وملطيةَ ونواحيها، فقتل وأحرق وسبى، وسار نحو الشرقِ، فلمّا رأى الأرمَنَ يحرسون الدروبَ والممرّاتِ ارتدَّ إلى ملطيةَ،

واجتاز قُباقب، وانحدر إلى الفُراتِ، فعَبَرَهُ خَوْضاً، حتى أغار على بَطْنِ هِنزيط، وبحيرةِ سمنين (بحيرة كوييك حالياً) ثم وَرَدَ مدينةَ أرقنين فأغار عليها أيضاً، إلى أنْ بلغ أخيراً مدينةَ آمد، وجيشُهُ مُثْقَلٌ بالغنائمِ والأسلابِ الكثيرةِ، وهنا بلغه أنّ البيزنطيين قد غزوا نواحي أنطاكِيَّةَ، فأمر الجيشَ أنْ يُغِذَّ السيرَ، ليلاً ونهاراً، ويطويَ المراحِلَ عن طريقِ حِصْنِ الرّان - في الجنوبِ الغربيِّ من أرقنين - وسميساط ودلوك، لكي يدركَ الحشودَ البيزنطية، وسَرَى سيفُ الدولةِ لا ينتظِرُ متأخراً، ولا يلوي على مُتقدِّمٍ، حتى وصل إلى مرعش في ثلاثةِ أيامٍ، وعند أرباضِ هذه المدينةِ شَهِدَ الجيشَ البيزنطيَّ مُنْصرِفاً عنها، فكَرَّ الجيشُ الحمدانيُّ عليه، وتلاحم الجيشانِ العربي والرومي في معركةٍ طاحِنَةٍ، تقهقر البيزنطيون

عندها وقد تضعْضَعَتْ صفوفُهُم وعمَّهُمُ الاضطرابُ، وفتك الحمدانيون بالبطارقةِ ــ كبارِ القادة ــ فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وأصابوا وَجْهَ القائدِ الأكبرِ الدمستق برداس فوكاس بضربةِ سيفٍ داميةٍ، فولّى الأدبارَ، وانهزم البيزنطيون، وأسر المسلمون منهم عدداً كبيراً، من بينهم ولدٌ للدمستقِ برداس، وهو قسطنطين أخو نيسيفور وليون، وكان فتىً أمْرَدَ في عنفوانِ فُتوتِهِ، ولم يستطِعْ والِدُهُ الدمستقُ النجاةَ بنفسِهِ إلاّ باختبائِهِ في بعضِ الأقْنيةِ الأرضِيَّةِ، وكان بين القَادَةِ القتلى ليون بن الملائني، وهو من بطارقةِ الروم المعْدُودِين، وغنم المسلمون أسلاباً لا تُحصى، وخلّفَتِ المعركةُ في نفسِ الدمستقِ برداس فوكاس نقمَةً طاغِيَةً وإحساساً بالخزي والعارِ، وحزناً كاوياً على وَلَدِهِ الشابِّ الأسيرِ الذي ساقه الحمدانيون إلى حلب، كما خلّفَتِ المعركةُ في وجْهِ الدمستقِ أثراً لا

يزولُ، فقد تركتْ ضربةُ السيفِ فيه جُرحاً غائراً، يَصِفُهُ أبو فراسٍ الحمدانيُّ ساخِراً، و يعده عذراً كافياً للدمستق، يبرّر فرارَهُ من المعركةِ، وافتداءه نفسَهُ بابنه قسطنطين الذي خلَّفَهُ أسيراً لدى سيفِ الدولة:

وولّى على الرسم الدمستقُ هارباً
وفي وجهه عُذْرٌ من السيفِ عاذرْ
فدى نفسَهُ بابنٍ عليه كنفسِهِ
وللشدّةِ الصمّاء تُفنى الذخائرُ

كما سخر المتنبي من الدمستق الذي هرب من الميدانِ، وأعطى سيفَ الدولةِ ابنَهُ وجيوشَهُ، ورضي أنْ يكونَ ابنُهُ فداءً له:

فولّى وأعطاكَ ابنَه وجيوشَه
جميعاً، ولم يُعط الجميع لتحمدا

وما طلبت زُرق الأسنّةِ غيره
ولكنّ قسطنطين كان له الفدىٰ

والحقُّ أنّ الدمستقَ المهزومَ، لم ينتظرْ طويلاً، فبعد عودةِ سيفِ الدولة إلى حلبَ، ودخولِهِ إليها دخولَ الظافرين، وأسرى الرومِ من البطارقةِ بين يديه، وبينهم قسطنطين فوكاس ولدُ الدمستقِ، وصل إلى الحاضِرَةِ الحمدانيةِ رسولٌ من الدمستقِ، يسألُ سيفَ الدولةِ فكاكَ ولدِهِ، والموافقةَ على المُفَاداةِ بالأسرى الآخرين، وفي القصيدةِ التي مَجَّدَ فيها المتنبي النَّصْرَ العظيمَ وَصَفَ استقبالَ الأميرِ الحمدانيِّ لسفيرِ الدمستقِ، الذى قبَّلَ الأرضَ بين يدي سيفِ الدولة قَبْلَ أنْ يُقبِّلَ كُمّه، خضوعاً وتحيةً واحتراماً، وتلطُّفاً للوصولِ إلى مُبْتَغاهُ، ولكنّ مهمتَهُ أخفقَتْ، ورفض سيفُ الدولةِ ــ فيما يذكرُ المستشرقُ

شلومبرجر– تسليمَ وَلَدِ الدمستقِ، فظل قسطنطين أسيراً في قَصْرِ الأميرِ الحمدانيِّ، حتى قضى نحبَهُ فيه بعد مرضٍ قصيرٍ، لم تنفعْ معه عِنايَةُ سيفِ الدولةِ بأسيرِهِ الشاب، وشدةِ اهتمامِهِ بإسعافه وتمريضه!

وقد بلغ الحزنُ بالدمستق مبلَغَهُ عندما حُمِلَ إليه نَعْيُ ولدِهِ، وكتب إليه سيفُ الدولةِ مُعزِّياً، وأخبره أَنَّه بذل في تمريضِهِ كُلَّ جهدِهِ دون جدوى؛ وقد وُورِيَ جُثمانُهُ في ضريحٍ من أضرِحَةِ الكنائسِ بحلبَ، واحتفل نصارى حلبَ بدَفْنِهِ فيه حسبَ الطقوس المسيحية.

وفي مصدرٍ عربيٍّ أنَّ الدمستقَ هو الذي دسَّ إلى عطَّارٍ نَصْرانيٍّ بحلبَ، لِيَسْقِيَ قسطنطين سُمَّاً، ففعل، ومات بذلك، ولكنَّ أحزان الدمستقِ على وَلَدِهِ تنفي ذلك، وقد كان الأسيرُ الشابُّ مُكرَماً في

أسرِهِ، وحاول الأبُ المفجوعُ أنْ يترهَّبَ و يلبسَ المُسُوحَ (ثيابَ الرهبانِ) ويُخلِدَ إلى أحدِ الأدْيرةِ، توبةً وتكفيراً وحُزناً، فسخِرَ منه المتنبي، وهزِىء من لبسه مُسُوحَ الرُّهْبانِ، وحمله العُكاز في الدير، لأنَّ ذلك كلَّهُ لا يُنجيه من خوفِهِ من سيفِ الدولة و يُنقذه منه!

فلو كان يُنجي من عليٍّ ترهُّبٌ
ترهبتِ الأملاكُ مثنىٰ ومَوْحَدا

والحقُّ أنَّ الدمستقَ المهزومَ المفجوعَ لم يَنَمْ على الجراحِ التي أصابتْ عُنْفُوانَ نفسِهِ، كما أصابتْ وَجْهَهُ، فقد ظلَّ عارمَ النقمةِ، بالغَ الحقدِ، يترقَّبُ الفُرْصَةَ المواتيةَ للانتقامِ لنفسِهِ ولِوَلَدِهِ ولجيوشِهِ، وسنراه على رأسِ الجيشِ البيزنطيّ من جديدٍ، وقد حشد فيه جُموعاً زاخِرةً، واختار أركانَ حربِهِ من

خِيرةِ البطارقةِ وشُجعانِهم، وفيهم ابنُهُ القائدُ نيسيفور فوكاس، وصهرُهُ البطريقُ تيودوس الأعْورُ، وغيرهما من أقربائه وذويه، المتحرقين لخوضِ معركةِ الانتقامِ، وستشهدُ أسوارُ مدينةِ الحَدَثِ المعركةَ الفاصِلَةَ الكُبْرى بين الحمدانيين والروم، وهي المعركةُ التي خلَّدَتْ بطولةَ سيفِ الدولة الحمداني وجعلتْ منه رمزاً للصمود العربيِّ الإسلاميِّ في وَجْهِ الزحوفِ الصليبية وأحقادِها المُبكِّرَةِ!

وقد حانَ الوقتُ لِنقدِّمَ وقائعَ المعركةِ، ونعرِضَ مشاهِدَها، وما تنطوي عليه من أمجادٍ و بطولاتٍ.

مفاجأة الروم للحمدانيين أمام أسوار الحدث

مدينةُ الحَدَثِ الحَمْراءِ ثَغْرٌ إسلاميٌّ حَصِيْنٌ، بين ملطية وسميساط ومرعش، يتميَّزُ بموقعٍ استراتيجيٍّ عظيمِ الأهمّيَةِ والشأنِ في الحروبِ الدائرةِ على الثَّغُوْرِ بين المسلمين والبيزنطيين، لأنّه يقومُ في أولِ الدربِ الشرقيِّ الذي يَصِلُ الجزيرةَ بالعاصِمَةِ البيزنطية، ويُسمى (درب الحدث)، باسْمِ الثغرِ الإسلاميِّ نفسِهِ، أو (درب السَّلامة) كما كان الأمويون يُطْلِقُونَ عليه، تفاؤلاً بالسَّلامَةِ وتطيُّراً من لفظِ الحَدَث (المصيبة)، وكان الرومُ

حريصين على تدميرِ هذا الثغرِ الإسلاميِّ الحَصِينِ القائِمِ كالقلعة فوق تلٍ عالٍ، بتربتِهِ الحمراء، وأسوارِهِ المنيعَةِ، والحِصْنِ المُشيَّدِ على قمَّةِ جبلِ (الأَحَيْدِبِ) والذي يُمثِّلُ باشرافِهِ مِفْتاحَ المدينةِ، لأنَّ موقعَ الحدثِ الحمراءِ يجعلُها باباً للطريق إلى القسطنطينية، ونقطةَ انطلاقٍ للجيوشِ الإسلامِيَّةِ في غاراتِها على الثغورِ البيزنطية، فكان الرومُ يُوالون الإغارةَ على (الحَدَثِ) لِيدمِّرُوها ويهدموا أسوارَها، وفي عام ٣٣٧هـ أغارتْ جُيُوشُهُم عليها بقيادةِ الدمستق برداس فوكاس، ووَجَدَ أهلُها وحاميتُها أنفسَهُم عاجزين عن صَدِّ المُغيرين، فسلَّمُوها بالأمَانِ ــ دون قتالٍ ــ إلى الدمستق، فأضرم فيها النارَ، وأحرقها، وخرَّبَ أسوارَها، وتركها مدينةً مَفْتوحةً للرُّوم، يدخلونها متى أرادوا، ولا يُمكِنُ

لسيفِ الدولةِ أنْ يستفيدَ من موقعِها الحربيِّ في هجومِهِ على الثغورِ البيزنطية القائمَةِ وراءهَا.

وكان من دَأبِ الأميرِ الحمدانيِّ قبْلَ البَدْءِ بغزواتِهِ لأرضِ الرومِ أنْ يعمدَ إلى تقويَةِ الثغورِ الإسلاميةِ وتحصينها وترميمِ المُتهدِّمِ من أسوارِها، وتَنْظيمِ وسائلِ الدِّفاعِ عنها، بتعزيزِ الحامياتِ فيها، وتأمينِ حاجتِها من الأسلحةِ والمالِ، وكان عليه أنْ يُعيدَ بناء ثَغْرِ الحَدَثِ، ويُصلحَ ما أَفسَدَهُ الرومُ من حُصُونِها وأسوارِها، ولكنّ تتابُعَ الأحداثِ والمعاركِ شَغَلَهُ عنها، فلمّا تخلَّصَ من الفِتَنِ الداخليةِ، وأحرزَ نصرَهُ العظيمَ على الدمستقِ برداس فوكاس عند أرباضِ مرعش، عمد في عام ٣٤٣هـ إلى القيامِ بجولةٍ يتفقَّدُ خلالها مُدُنَ الثغورِ الإسلاميةِ، ويصلح ما خرَّبَتْهُ الغاراتُ والحروبُ منها، وأقبل بجيشِهِ على

مدينةِ مرعش، فزاد في دَعْمِ تحصيناتِها، وانصرف منها إلى الحَدَثِ، فدخلها في السابع عشر من جمادي الآخرة (الموافق للثامن عشر من تشرين الأول ٩٥٤م) بصورةٍ مُفاجئةٍ، ورأى ما خلَّفَهُ الرومُ فيها من خرابٍ ودمارٍ، فانكبَّ مع قُوَّادِهِ وجيشِهِ على إعادةِ بنائها، في اليوم الثاني لِنزولِهِ فيها، على الرغم من الأمْطارِ الشديدةِ التي كانتْ تتهاطَلُ عليها، ولم يُضِع الأميرُ الحمدانيُّ الحازِمُ وقتَهُ، فباشر العملَ، وبدأ بتخطِيْطِ الأُسُسِ، لِعمارَةِ أسوارِها، وحفر بيدَيْهِ أولَ الأساسِ، (ونحن اليوم نقول: ودشّن بنفسه بداية التعمير) ابتغاءً للأجْرِ، واستثارة لحماسَةِ الجيشِ، الذي أقبل أفرادُهُ على البناء بهمَّةِ المُجَاهِدين، وعزيمَةِ المؤمنين الصادِقين، وكان سيفُ الدولةِ يَطُوفُ على بُناةِ الأسْوارِ، ويَسْتحثُّ المزِيْدَ من هِمَمِهِم وعزائِمِهِم، ويُثْني على غَيْرَةِ

المُخْلِصينَ وحماسَتِهِم، وهو يَشْهَدُ البناء يَرتفعُ ويمتدُّ، وكان المتنبي شاعرُ الأميرِ، يلازِمُ صُحْبتَهُ، و يرى مُشاركةَ القَادةِ والجندِ والمجاهدين المتطوّعين جميعاً لِلفَعَلةِ العاملين في البناءِ ونَقْلِ الحجارةِ واللَّبَنِ والطينِ، فتزدادُ نفسُهُ ابتهاجاً، وتزدادُ شاعريتُهُ انفعالاً وتوهُّجاً، وقد كان الجميعُ يتلهفّون إلى إنجاز التعميرِ والإصلاحِ والترميمِ في أقصى سرعةٍ مُمكنةٍ، وكأنهم كانوا يخشون أنْ يهاجمَهُم البيزنطيون قبل أنْ ينتهوا من إعادةِ البناءِ وتحصين المدينة!

والحقُّ أنّ البيزنطيين عرفوا نُزُولَ الجيشِ الحمدانيّ على الحَدَثِ، وأدركوا غايةَ سيفِ الدولةِ من إسراعِهِ في تعميرِ الثغرِ المُهدّم، ولهذا كان ردُّ فعلِهِم سريعاً جداً، إذ لم ينقضِ بعدُ يومان على بِدايَةِ العملِ في إعَادةِ البناءِ حتى ظهرتْ طَلائعُ الجيشِ

البيزنطيِّ فجأةً أمامَ الحدَثِ، وتوالى وصولُ قطعاته الكثيرةِ وجُموعِهِ الحاشِدَةِ، بقِيادَةِ الدمستقِ برداس فوكاس، وقد عَزَمَ على مُداهَمَةِ سيفِ الدولة، وسَحْقِ الجيشِ الحمدانيِّ، ومنعِهِ من بناء الثَّغْرِ المُخرَّبِ، والانتقامِ للهزيمةِ المُذلَّةِ التي أوقعها سيفُ الدولةِ به قبل عامٍ، والثأرِ لوَلَدِهِ الأسيرِ قسطنطين، الذي قضى نحبَهُ في أسرِ الحمدانيين!

ورأى الحمدانيون كَتائبَ جيشِ الدمستقِ، بفُرْسانِها ورماتها، وهي تسدُّ لِكَثْرتِها الآفاقَ، وتأخذُ مواقعَهَا في مُحاصَرَةِ المدينةِ من كلِّ جانبٍ، وحِصَارِ الجيشِ الحمدانيِّ فيها، فعرفوا أنَّ أمامَهُم امتحاناً عسيراً، وأنَّ عليهم أنْ يخوضوا بإيمانِهم وصبرِهِم وصمودهم معركةً حاميةَ الوطيسِ، كثيرةَ الأهوالِ، تجري فيها الدماءُ أنهاراً، ولا يعلمُ ما يكون في خاتِمتِها إلاّ الله!

وقائع المعركة الفاصلة وعملياتها الحربية

كان الجيش البيزنطي المحاصر لمدينة الحدث يتألف من قوات ضخمة تزيد على خمسين ألف محارب، وقد عُبّئت فيها القطعات النظامية من الفرسان والمشاة، وانضم إليها المتطوعةُ من البلغار والخزر والسلاف والروس والأرمن، فهذا خليط من أمم شتى، متعدّدة اللغات، لا يتفاهم المحاربون فيما بينهم إلا بوساطة التراجمة، وقد لبسوا الدروع السابغة، وألبسوا خيلهم التجافيف (آلات مثل الدروع)، وتدجّجوا بالسلاح، وسدوا بزحفهم الكبير شرق الأرض وغربَها، وبلغت جلبة أصواتهم عنان

السماء! وهذه الصورة لضخامة الجيش الزاحف على الحدث وكثرة أجناسه وغنى تسلّحه وتجهيزه، يُقدّمها شاهد عيان للمعركة بجميع جزئياتها ومراحلها، وهو المتنبي، فلنُصغ إلى قوله وهو يخاطب سيف الدولة:

أتــوك يجــرُّون الحــديــدَ كــأنهــم
سَــرَوا بجــيــادٍ مــا لهــنَّ قــوائــمُ

خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفُه
وفي أُذُن الجــوزاء مــنــه زمــازمُ

تجــمّــعَ فــيــه كــلُّ لِــسْــنٍ وأمَّــةٍ
فما تُفـهـم الـحُـدّاثَ إلا الـتـراجـمُ

وكان على رأس هذا الجيش الدمستق برداس فوكاس، مُعزّزاً بابنه القائد نيسيفور فوكاس وعدد كبير من كبار القادة البطارقة، وفيهم صهر الدمستق، وابنُ بنته وغيرهم من ذوي قرباه، وقد

أقبلوا معه حانقين، متحرّقين للايقاع بالجيش الحمداني، والثأر والإنتقام من سيف الدولة!

أمّا قُوّاتُ الأميرِ الحمدانيِّ التي خاض بها هذه المعركةَ الشديدةَ الهَوْلِ، فليس في المصَادِرِ ذكرٌ لِعدَدِ المُحَارِبين فيها، وتكتفي بعضُ المصادِرِ العربيةِ بالاشارةِ إلى خمسمِائةٍ من غِلْمانِهِ، هم الذين شقَّ بهم صُفوفَ الرومِ، ليصلَ إلى الدمستقِ، و يشتبكَ معه في تلاحمٍ ضارٍ وقِتال مُسْتميتٍ، وظنَّ بعضُهم أنَّ الأميرَ الحمداني لم يكن معه يومذاك غيرُ هذه المئاتِ الخمسِ من غِلْمانِهِ، مع أنّ هؤلاء هم خاصَّةُ رجالِهِ، والحرسُ الخاصُّ الذي يسيرُ في ركابه، وهو يختارُهم عادةً من أشجعِ الفُرْسانِ وأكثرِهم إخلاصاً له وتضحيةً في سبيلِهِ.

والمصادرُ العربيةُ لم تُعْنَ بتفصيلِ الكلامِ على

الجيشِ الحمداني في معركةِ الحَدَثِ. ولم تُشر إلى أعدادِهِ وتجهيزاتِهِ، في حين أنَّ بعضَها يهتمُّ بتقديمِ صورةٍ مُكبَّرةٍ للجيشِ البيزنطيِّ المُهاجِمِ وتحويلها، والثعالبي في (يتيمة الدهر) بعد أنْ يذكُرَ سيرَ سيفِ الدولةِ إلى الحدثِ لبنائها، يقول: «فاشتدَّ ذلك على ملكِ الرومِ، فجمع عُظماءَ أهلِ مملكتِهِ، وجهّزهم بالصَّليبِ الأعظمِ، وعليهم برواس الدمستق، ثائراً بابنه قسطنطين، (أي طالباً لثأر ابنه) في عددٍ لا يُحصى، حتى أحاطوا بعَسْكَرِ سيفِ الدولةِ إلخ...» وتضخيمُ الثعالبي لصورةِ الجيشِ البيزنطيِّ، مثلُ تهويلِ المتنبي فيها أيضاً، أمرٌ يمكنُ تعليلُهُ: فالنصر الذي تمَّ للحمدانيين على مثلِ هذا الجيشِ العظيم هو نصرٌ عظيمٌ حقاً، والهزيمةُ التي حلَّتْ بمثلِ هذا الجيشِ الضخمِ هي نَصْرٌ ضخمٌ لسيفِ الدولةِ يستحِقُّ كلَّ تمجيدٍ وثناءٍ وتقديرٍ.

ومهما يكن فإنّ أعدادَ الجيشِ البيزنطيِّ الزاحِفِ على الحَدَثِ كانت دونَ ريبٍ تفوقُ كثيراً أعدادَ الجيشِ الحمداني المُحَاصَرِ فيها، ويمكننا أنْ نستخلصَ هذه النتيجةَ بسهولةٍ من تصويرِ المتنبي للجيشِ الروميِّ المُهاجِمِ، برغم ما فيه من مُغَالاةِ الشعراء ومُبالغتِهِم، وكنا قدّمنا أنّ المتنبي كان شاهدَ عيان للمعركةِ الكُبرى، بكلِّ تفصيلاتها، ولا بُدَّ أنّه شارَكَ في وقائعها، لأنّه كان حريصاً على مُلازمَةِ سيفِ الدولةِ، فأتيحَ له أنْ يَشْهَدَ بعينيه كلَّ ما جرى فيها، وأنْ ينفعلَ بأحداثها، ليصفَ من بَعْدُ في قصيدتِهِ الميميةِ الملحميةِ معركةَ الحَدَثِ الحمراء بدقائقِهَا وجُزئياتِهَا.

وفي صباح يوم الإثنين، في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة من عام ٣٤٣هـ (الموافق

للثلاثين من تشرين الأول ٩٥٤م) بدأتِ المعركةُ الكُبْرى بين الطرفين، ووقع الصِّدَامُ بينهما أمامَ حِصْنِ الأُحَيْدِبِ، الذي وصفنا من قَبْلُ موقعَهُ وإشرافَهُ، وأحسَّ الحمدانيون في بدايةِ القِتَالِ، وتحتَ وَطْأةِ الهجومِ الكاسِحِ الذي قام به البيزنطيون لسَحْقِ معنوياتِ خصومهم، بالوَهَن، وساءتْ ظنونُ المسلمين من هَوْلِ ما يرون، ولكنّهم ما لبثوا أنْ استعادوا جاشَهُم، فتماسكتْ منهم الصُّفوفُ، جَرَتِ الدماء ُأنهاراً، فصبَغَتِ الأرضِ وسقتْ تُربَتَهَا، بعد أنْ كانتِ الأمطارُ تسقيها قبل أنْ ينزِلَ سيفُ الدولةِ فيها، وإلى هذا يُشيرُ المتنبي بقوله:

هل الحَدَثُ الحمراء ُتعرفُ لونَها

وتعلمُ أيُّ الساقيِن الغمائمُ

سقتْها الغمامُ الغُرُّ قبلَ نُزُولِهِ

فلمّا دنا منها سقتها الجماجمُ

و يؤكد المتنبي أنّ الحمدانيين كانوا يُوالون بناءَ الأسوارِ في قلبِ المعركةِ المُسْتَعِرَةِ، و يرفعونها عالية، والرماحُ تقْرعُ الرماحَ، وأمواجُ المنايا تتلاطَمُ حَوْلَ حيطانها المرتفعة:

بناها فأعلىٰ والقَنا تقرعُ القنا

وموجُ المنايا حولها مُتلاطمُ

وكيف تُرجّي الرومُ والروسُ هدمَها

وذا الطعن آساسٌ لها ودعائم

وإذا كُنّا لا نَجِدُ في كتبِ التاريخ شيئاً عن الخطَّةِ التي اتبعها الحمدانيون للتخلُّصِ من الحِصَارِ المُحِيطِ بهم، والتمكُّنِ من سَحْقِ القواتِ المغيرة

وتحطيمها وهزيمتها، فإنَّ في قصيدةِ المتنبي العظيمةِ هذه ما يجعلُ منها وثيقةً نادِرةً، تحكي دقائقَ المعركةِ، وتكشِفُ عن خطةِ سيفِ الدولةِ وعملياتِهِ الحربية المظفَّرَةِ التي أدَّتْ به إلى النَّصْرِ الحاسِمِ في نهايتها: فقد تمكَّنَ الأميرُ الحمدانيُّ من القِيامِ بحركةِ التفافٍ خاطِفَةٍ وبارِعَةٍ على جناحي الجيشِ البيزنطيِّ، وشدَّدَ عليهما الهجومَ فتضعْضَعَتْ صفوفُ المحاربين فيهما، وتراجَعَتْ واختلطَتْ بقلبِ الجيشِ وأثارتْ فيه الفوضى والاضطرابَ، وانتهز سيفُ الدولةِ الفُرْصةَ الذهبيةَ السانِحَةَ، فقام مع حرسِهِ الخاصِّ المؤلف من سرية من خاصة رجاله تضم خمسمائة مُحَارِبٍ، بهجومٍ فدائيٍّ مُفاجِىءٍ، شقَّ به قلبَ الجيشِ البيزنطيِّ، وبلغ بسرعة خاطفة موطِنَ القائدِ الأكبرِ الدمستق، وهو يُجندِلُ في طريقه كلَّ

مَنْ يلاقيه بضَرَباتِ سيفِهِ القاضِيَةِ، وعندما رأى الدمستقُ إصرارَ الأميرِ الحمداني على مُنازلتِهِ بالسَّيفِ، وطرحِهِ للرمحِ، ليكونَ التلاحُمَ بين القِرنين (بالسلاح الأبيض) ـ كما نقول اليوم ـ تاماً، خارت عزيمتُه، وولّى هارباً بنفسِهِ، على ظهْرِ فرسِهِ، وترك مَنْ حولَهُ من البطارقةِ والقُوَّادِ للذبحِ والأسرِ، وقدِ انْتشرتْ جُثَثُ قتلاهم فوقَ جبلِ الأحَيْدِبِ، وراحَتِ الخيولُ العربيةُ بفُرْسانِها تُطاردُ المحاربين من الرومِ، وتدوسُهُم بأرجلها، وتجعلُ من جُثثِهِم طعاماً للعُقْبانِ، تنثرُهُ حولَ وكورِها في أعالي الجبل:

ضممتَ جناحيهم على القلب ضمّةً
تمـوتُ الخـوافي تحتهـا والـقـوادمُ

بضربٍ أتى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ

وصار إلى اللبّاتِ والنصرُ قادمُ

حقرتَ الرو ينياتِ حتى طرحتَها

وحتى كأن السيف للرمح شاتمُ

ومَنْ طلب الفتحَ الجليلَ فإنّما

مفاتيحُهُ البيضُ الخفافُ الصوارمُ

في هذه الأبياتِ شرحٌ لخطّةِ سيفِ الدولة في المعركةِ كاملةً، البدءُ بحركةِ التفافٍ سريعةٍ على جناحي الجيشِ البيزنطيِّ وسحقهما، والقيام بهجومٍ فدائيٍّ خاطفٍ بالسيوفِ على قلبِ الجيش ومركزِ القيادةِ العامَّةِ فيه، لسحقها وتحقيق النصرِ بضَرباتٍ ماحِقَةٍ من السيوفِ، والسيوفُ وحدَها من دونِ الرماحِ هي مفاتيحُ كلِّ نصرٍ عظيمٍ!

أمّا مُطاردةُ خيولِ الحمدانيين للبيزنطيين فوقَ

سفوحِ جبلِ الأحَيْدِبِ، فصورتُهَا في الأبياتِ التالية:

نـثـرتَـهـمْ فـوق الأحـيـدِبِ نَـثْرَةً
كما نُـثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهمُ
تـدوسُ بـكَ الخيلُ الوكورَ على الذُرا
وقـد كَـثُرَتْ حـوْلَ الـوكورِ المطاعِمُ
إذا زِلـقَـتْ مَـشَّـيْـتَـهَـا بِـبُـطـونِـها
كما تـتـمـشَّـى في الـصـعيدِ الأراقمُ

وفي البيتِ الأخيرِ صورةٌ واقِعيَّةٌ للصعوبةِ التي كانتْ خيولُ الحمدانيين تلقاها، وهي تصعدُ مُنْحدراتِ الجبل تطارد البيزنطيين، فيرغمُها راكبوها أنْ تزحفَ على بطونها زلقاً، كما تزلقُ الأفاعي في مشيها فوقَ الترابِ!

ولكنّ هذه الخطّةَ التي قاد بها سيفُ الدولة

عمليّاتِ المعركةِ ما كان لها أنْ تنجح، وتؤدّيَ بصاحِبها إلى هزيمةِ خصمِهِ الجبّارِ، وجيشِهِ العظيمِ اللَّجْبِ، لولا بطولةُ الأميرِ الحمدانيِّ، وهجومُهُ الفدائيُّ الصاعقُ مع فُرْسانِ حرسِهِ الخاصِّ، على قلبِ الجيشِ البيزنطيِّ، واختراقه الصفوفَ باستماتةٍ وشجاعةٍ، للوصول إلى الدمستقِ، ففي تلك الساعةِ الرهيبةِ التي انهار فيها الضُّعَفاءُ من الرجالِ، وركن إلى الفرارِ كلُّ عاجزٍ عن الصمودِ في وَجْهِ الموتِ، ولم يبقَ في أيدي الفُرْسانِ إلاّ السيفُ القاطِعُ، كان سيفُ الدولةِ ثابتاً في قلبِ المعركةِ، والمنِيَّةُ ترمقُهُ من كلِّ جانبٍ، وهو نائمٌ عنها، يشهَدُ فرارَ الأبطالِ من حوله، وهو صامدٌ ثابتٌ، ضاحكُ الوجهِ بسّامُ الثغرِ:

فِلله وقتٌ ذوّب الغشَّ نارُهُ

فلم يبقَ إلا صارمٌ أو ضُبارِمُ

تقطّع ما لا يقطع الدرعَ والقنا

وفرَّ من الأبطال من لا يُصادِمُ

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ

كأنَّكَ في جفنِ الردىٰ وهو نائمُ

تمرُّ بك الأبطال كَلْمىٰ هزيمةً

ووجهُك وضّاحٌ وثغرُك باسمُ

وهذه الصورةُ الحيَّةُ التي يرسُمُها المتنبي لبطولَةِ الأميرة الحمدانيِّ وثباتِهِ في وجه الموتِ حتى النَّصْرِ، ستظلُّ في الضميرِ العربيِّ عبر الأجيالِ، ذكرىٰ فَخَارٍ وإِكْبارٍ، لمعركةِ الحَدَثِ الحمراءِ التي استمرَّتْ أهوالُهَا من طلوع شمسِ ذلك النهار حتى العصر، ولكنّ بوادِرَ النصرِ للمسلمين لاحتْ عندما تمكَّنَ سيفُ الدولةِ من شقِّ الصفوفِ إلى مَرْكَزِ القِيادَةِ في قلبِ الجيشِ البيزنطي، مع فُرْسانِهِ البواسِلِ، وأوقعوا

بالدمستقِ وكبارِ قادتِهِ، بذلك الهجومِ الفدائيِّ المفَاجِىء، فتقهقرَ الجيشُ الروميُّ إثر ذلك، وعندما تحَقَّقَ لِقَادتِهِ أنَّ الهزيمةَ محيقةٌ بهم، عمدوا إلى قَتْلِ الأسرى المسلمين الذين أسروهم في بدايةِ المعركةِ، وولّوا الأدبارَ، وحُقَّ عند ذلك للحمدانيين المنتصرين، وقد شهدوا مذابِحَ المأسورين منهم بيدِ الرومِ، أنْ يَنْقضُّوا على فُلُولِ الجيشِ البيزنطي المُنْهزِمِ، يَحصِدُونَها حَصْدَاً، بقلوبٍ قاسيةٍ لا رحمةَ فيها، وتُجْمِعُ المصادِرُ على أنَّ الحمدانيين قتلوا في تلك المعركةِ أكثرَ من ثلاثةِ آلافٍ من رجالِ الدمستقِ، وأسروا كثيرين، من بينهم صهرُهُ وابنُ بنتِهِ، ولم ينجُ ابنُهُ نيسيفور فوكاس إلاّ باختفائِهِ في بعضِ الأنْفاقِ، حتى إذا هجم الليلُ، لحق بالفُلُولِ المهزومَةِ من جيشِ أبيه، التي كانت تحثُّ الخطا هارِبةً على الدربِ نحو القسطنطينية!

أمّا الدمستقُ برداس فوكاس نفسُهُ، فالمتبني يَصِفُ فرارَهُ، و يسخرُ منه، ويجعلُهُ سعيداً بنجاتِهِ بنفسِهِ، بعد أنْ خلّف أصحابَهُ للسيوف، يشغلونها عنه برؤوسهم وأيديهم:

أفي كُلِّ يومٍ ذا الدمستقُ مُقبلٌ
قفاهُ على الإقْدامِ للوجه لائمُ
أيُنكر ريحَ الليثِ حتى يذوقَهُ
وقد عرفتْ ريحَ الليوثِ البهائم
وقد فجَعَتْهُ بابنهِ وابن صهره
وبالصِّهر حَمْلاتُ الأميرِ الغواشمُ
مضى يشكرُ الأصحابَ في فوتِهِ الظُّبا
بما شغلتها هامُهم والمعاصمُ
و يفهم صوت المشرفيّةِ فيهمُ
على أنَّ أصواتَ السيوفِ أعاجمُ

يُسَرُّ بما أعطاك لا عن جَهَالةٍ
ولكنَّ مغنوماً نجا منكَ غانِمُ

فقد حُقَّ للدمستقِ الهارِبِ، بعد أنْ توالَتْ هزائِمُهُ أمامَ بطولةِ سيفِ الدولةِ، أنْ يعرفَ أنَّ الأميرَ الحمدانيَّ ليثٌ بطَّاشٌ، وألاّ قدرةَ له عليه، وقد شَهِدَ بنفسِهِ ما أنزلَهُ به من الفواجِعِ الكثيرةِ! وقد فجعه حتى اليوم بقَتْلِ ابنِهِ وصهرِهِ وابنِ صهرِهِ!

أمّا الأبنُ القتيلُ الذي يذكره المتنبي هنا، فلعلَّهُ حفيدُ الدمستقِ، من ولدِهِ نيسيفور فوكاس، وهو فتًى شابٌّ، أشار الأستاذُ بلاشير إلى مَقْتلِهِ في نهاية المعركة، لأنَّ الحمدانيين حينذاك أجْهزُوا على جميع الأسرى من البيزنطيين، عندما رأوا ما فعلوه بأسراهم من المسلمين قَبْلَ ركونِهِم إلى الفرارِ.

بَعْدَ هذا النصرِ العظيمِ، أقام سيفُ الدولةِ على الحَدَثِ، إلى أنْ أتمَّ بناءَها، وشاد أسوارَها، ووضع بيدِهِ آخر شرفة فيها، يوم الثلاثاء في الثالث عشر من رجب (١٢ تشرين الثاني ٩٥٤)، وفي هذا اليوم نفسِهِ، تمَّ الاحتفالُ بالنَّصْرِ، وأنشد المتنبي فيه قصيدتَهُ الملحميَّةَ العظيمَةَ، عند أسوارِ المدينةِ التي شَهِدَتِ المعركةَ الكبرى، ووصف فيها وقائعها، وختمها بتهنئةِ الأميرِ المُنْتصِرِ:

ألا أيُّها السيفُ الذي لستَ مُغمداً
ولا فيكَ مُرتابٌ ولا منكَ عاصِمُ
هنيئاً لِضَرْبِ الهامِ والمجدِ والعُلا
وراجيكَ والإسلام أنك سالمُ
ولِمْ لا يقي الرحمنُ حَدَّيْكَ ما وقى
وتغليقُه هامَ العِدا بكَ دائمُ

وقد أدرك المتنبي أهمِّيَّةَ المعركةِ، وخطرَ النَّصْرِ الذي حقَّقَهُ سيفُ الدولةِ فيها، عندما عدَّها حرباً بين الإسلامِ والشركِ، وكان الأميرُ الحمدانيُّ ينوبُ فيها عن العالمِ الإسلاميِّ المُهدَّدِ بالزُّحوفِ البيزنطيةِ على ديارِهِ، فالنصرُ الحمدانيُّ عند أسوارِ الحَدَثِ نصرٌ عربيٌّ يغمرُ القبائلَ العربيةَ العدنانيةَ كلَّهَا بالشرفِ والمجدِ، ونصرٌ إسلاميٌّ تفخرُ به دنيا الإسلامِ كلُّها، ولا يقتصِرُ على عواصمِ الثغورِ وإمارة سيف الدولة فيها وحدها:

ولستَ مليكاً هازماً لِنظيره
ولكنك التوحيدُ للشِّركِ هازمُ
تَشَرَّفُ عدنانٌ به لا ربيعةٌ
وتفتخر الدنيا به لا العواصمُ

محاولة أخرى يائسة لتدمير أسوار الحدث

لم يَسْتِكنِ البيزنطيون إلى هزيمتِهِمُ الساحِقَةِ أمامَ أسوارِ الحَدَثِ، وهالهم أنْ يُعادَ بناؤها وتحصينُها، لِتغدُوَ من جديدٍ نقطةَ ارتكازٍ لِلقُواتِ الحمدانِيَّةِ في انطلاقِهَا للغارةِ على ثغورِهم ومُدُنِهم، فالحدثُ بموقعها الحربيِّ العظيمِ الأهمِيَّةِ هي بابُ الطريقِ الشرقيِّ المؤدي إلى العاصمة البيزنطية، وتملُّكُ الحمدانيين لحِصْنِها شوكةٌ في جنب الروم، لأنها تهديدٌ دائمٌ لهم، ولهذا نَجِدُهُم يُعاوِدُونَ الكرَّةَ عليها، ليحاولوا هدم أسوارِها وتحصيناتها من جديد، ففي أوائلِ جمادى الأولى من عام ٣٤٤هـ أقبل الجيشُ

البيزنطيُّ بِقِيادةِ الدمستقِ برداس فوكاس على الحَدَثِ، وعَسْكَرَ حولها، وتهيَّأ للاستيلاءِ عليها، وهبَّ أميرُ حلبَ سريعاً لِنجدَةِ الثغرِ المُحَاصَرِ والتصدي للرومِ، ولكنّ هؤلاء آثروا أنْ يرفعوا الحِصَارِ عن الحَدَثِ، و يرحلُوا عنها دونَ قِتالٍ في اليوم الحادي عشر من الشهرِ نفسِهِ، وانصرف سيفُ الدولةِ إلى دَعْمِ تحصيناتِ الحَدَثِ وتقو يَةِ حامِيَتِها، وراحَ شاعِرُهُ المتنبي يتحدَّى القائدَ البيزنطيَّ وجيشَهُ الذي يجمعُ (الرومَ والصقالبةَ والبلغارَ)، و يتهمُهُ بالعجز عن تحقيقِ آمالِهِ في الاستيلاء على الحَدَثِ وهَدْمِ أسوَارِهَا، و يُذكِّرُهُ بهزيمَتِهِ السابقة القريبة، ومَصَارِعِ أقر بائِهِ دونها، ثم يَسْتخلِصُ من انصِرَافِهِ عن الحدثِ دونَ قِتالٍ أنَّه أيقن سلفاً أنّ هزيمَتَهُ محققةٌ، وأنّه عاجزٌ عن تحقيقِ النَّصْرِ على خصمِهِ الحمدانيِّ الصَّامِدِ، والثغر الحصين المنيع الذي بناه:

لا ألــومُ ابــنَ لأوُن مــلــكَ الــرو

مِ وإنْ كــان مــا تمــنّـى مُـحــالا

أقْــلَــقَــتْــهُ بَــنِــيَّــةٌ بين أذْنَــيْــ

ــهِ وبــانٍ بــغــى الــسماء فــنــالا

يجمعُ الـرومَ والـصقـالـبَ والـبُـلْـ

ـــغــارَ فيهــا وتجــمــعُ الآجــالا

قــصــدُوا هَــدْمَ سُــورِهــا فَــبَــنَــوْهُ

وأتــوا كــي يُــقــصِّــرُوهُ فــطــالا

مــا مــضــوا لم يُــقــاتلوك ولكنَّ

الــقــتــالَ الــذي كــفــاكَ الــقــتــالا

نــزلــوا في مَــصَــارعَ عــرفــوهــا

يَــنْــدُبــون الأعــمــامَ والأخــوالا

إنّ دون التي على الـدَرْبِ والأحـ

ــدبِ والنهــر مِــخْــلَــطاً مِزْيــالا

غَـضَـبَ الـدهـرَ والمـلوكَ عـليهـا

فـبـنـاهـا في وَجْـنَـةِ الـدهـرِ خـالا!

يقول المتنبي:

«أنا لا ألومُ القَائِدَ الروميَّ برداس فوكاس بن ليون على أمانيه بتدميرِ بناءِ الحَدَثِ وهَدْمِ أَسْوارِها، وإنْ كان ما يتمنّاه أمراً مُحالاً لا يمكن تحقيقُه! ذلك أنّ بناءَ الحَدَثِ يُثيرُ قلقَهُ، كأنّه شوكةٌ بين أذينه، كما يُقلِقُهُ باني الحَدَثِ سيفُ الدولةِ، الذي لو أراد السماءَ لنالها، فالقائدُ الروميُّ يجمعُ جيشَهُ الضخمَ من الرومِ والسلافِ والبُلغارِ، وأنت يا سيفَ الدولةِ تحشُدُ لهذا الجيشِ الموتَ والفَناءَ، وقد أراد الرومُ هَدْمَ أسوارِ الحدثِ، فجئْتَ إليها تزيدُ في دَعْمِها وتحصينها ورفْعِهَا عاليةً مُحْكَمَةَ البناءِ، وانصرفوا من غيرِ قتالٍ، لأنّ ذكرياتِ معركتِكَ

السابقَةِ معهم وهزيمتَهُم أمامَكَ فيها جعلَتْهُم ينصرِفُونَ خوفاً من هزِيْمَةٍ جديدة، وقد ذَكَّرَتْهُمُ الأرضُ التي نزلوا فوقَها لِحِصَارِ الحَدَثِ بمصارِعَ مَنْ قُتِلُوا فوقَها من أقارِبِهِم في المعركة السابقة، فانصرفوا راحلين، وبقيَتِ الحَدَثْ القائِمَةُ عند مدخلِ دَرْبِ السَّلامَةِ، وقلعتُها الصَّامِدَةُ فوق جَبَلِ الأحدبِ (وهو الأُحَيْدِبُ الذي مرَّ ذكرُهُ من قبْلُ)، وموضع النهر قرب الحدث، بقيَ كلُّ ذلك منيعَ الجانبِ، دونَ الوصولِ إليه رجلٌ مجرَّبٌ كثيرُ المخالطَةِ للأمورِ، قادرٌ على حمايَةِ الحَدَثِ، وصدِّ الأعداءِ الطامِعين فيها وقهرِ المُلُوكِ الراغبين في الاستيلاءِ عليها، وهذا الرجلُ سيفُ الدولةِ الذي بنى أسوارَ الحَدَثِ وحصَّنَهَا، وجعلَها زينةً للثُّغورِ الإسلامية، فهي في مَنَعَتِها وإحْكامِها ورِفْعَتِها كالخال، زيَّنَ سيفُ الدولةِ به وجنةَ الدهر!

فـهـي تمشي مشيَ الـعـروسِ اختيالاً

وتَـــثَـنّـــى على الـــزمـــانِ دلالا

غيرَ أنّ عروسَ الثُّغورِ هذه لنْ يطولَ أمدُ اختيالِهَا ودلالها زماناً طويلاً، في رِعايَةِ حاميها البطلِ الحمدانيِّ أميرِ حلبَ، وبعد خمسِ سنواتٍ، يتمكَّنُ البيزنطيون من سَحْقِ الجيشِ الحمدانيِّ في معركةِ (مغارة الكحل) عام ٣٤٩هـ، وتصبحُ الثغورُ الإسلامِيَّةُ عاجزةً عن مُواجهَةِ الزُّحوفِ الروميةِ عليها، وتصبحُ أبوابُ حلبَ، عرينِ سيفِ الدولةِ وعاصمةِ إمارتِهِ، مَفْتوحةً أمامَ الجيوشِ البيزنطيةِ الجَّرارَةِ التي تدخلُ المدينةَ عام ٣٥١هـ، ويُتاح بذلك لنيسيفور فوكاس، ابن الدمستق برداس فوكاس، أنْ ينتقِمَ بوحشيةٍ باغِيَةٍ للإذلال الذي عاناه الرومُ في حروبِ سيفِ الدولة، والهزائِمِ المتواليةِ التي كان يُلْحِقُهَا بقادتِهِم وجيوشِهِم.

خاتمة: نظرة تحليلية

في القَرْنِ الهجريِّ الرابعِ، حين دبَّ الانحلالُ إلى القُوَّةِ العربيةِ، وأصبحتْ في تمزُّقِها وفوضاها عاجِزَةً عن حِمايةِ ذاتِها والدِّفاعِ عن أراضيها، أخذ العِمْلاقُ البيزنطيُّ المُجاوِرُ ينتعِشُ بوصولِ الأسْرةِ المقدونيةِ إلى عَرْشِ الامبراطورية، وتوافُرِ عددٍ من القَادَةِ العسكريين المُخْلِصين الموهوبين على رأسِ الجيوشِ البيزنطية المُعَبَّأةِ لحربِ المسلمين في المشْرِقِ، وأصبح هدفُ السياسَةِ الرومية أنْ تستفِيدَ من ضَعْفِ المسلمين وتفرُّقِهم، فتَعْمَدُ إلى تدميرِ ثُغورِهم وطردِهم منها، والاستيلاءِ على بلادِ الشَّامِ، والوصولِ إلى بيتِ المقْدِسِ!

حينذاك قيَّضَ اللهُ للأمَّةِ العربية بطلا حقيقياً، تمخَّضَتْ عنه عشيرتُهُ الحمدانيةُ وقبيلتُهُ التغلبية الباسِلَةُ، المشْهورةُ بأمجادِها وبطولاتِها الحربيَّةِ منذ الجاهليةِ، فاستطاع أنْ يبعثَ في النفوسِ الخامِدَةِ همَّتَها من جديدٍ، ويبثَّ فيها روحَ المُقاومَةِ والصمود والنضالِ، ويجمَعَها من حولِهِ، للتصدَّى للجيوشِ البيزنطية المُغِيرَةِ وتردَّها على أعقابِهَا، وظلَّ سيفُ الدولةِ يَنْهضُ بهذا الدّورِ المجيدِ عشرين عاماً، قبْلَ أنْ يُدرِكَه الوَهَنُ، وتصبحَ إمارتُهُ الحمدانيةُ الصغيرةُ عاجزةً عن الوقوفِ في وَجْهِ الأمواجِ البيزنطيةِ الكاسِحَةِ.

والعجيبُ أنْ يُقصِّرَ المؤرخون العربُ القُدامىٰ في نَقْلِ الأحداثِ العظيمةِ التي شَهِدَها عصرُ سيفِ الدولةِ، وما تكشَّفَتْ عنه من بطولاتٍ عربيةٍ

وإسلاميَّةٍ خِلالَ الوقائع والمعاركِ التي خاضها الأميرُ الحمدانيُّ، وكبَّدَ فيها الجيوشَ البيزنطيةَ الجَرارةَ الزاحِفةَ على الثُّغورِ الإسلاميةِ هزائمَ مُتوالِيَةٍ، هي أمجادٌ عربيةٌ حقَّةٌ، نَجِدُ أصداءهَا العظيمةَ اليوم في أشعارِ الشعراء الذين جذبهم بَلاطُ الأميرِ الحمدانيِّ وكَرَمُهُ إلى حلبَ، واستطاعتْ شخصيةُ سيفِ الدولةِ وبطولاتُهُ أنْ تنالَ إعجابَهُم، وتُثيرَ قرائحَهُم، فأفاضوا في تصويرِ أمجادِهِ الحربيةِ، كالمتنبي وأبي فراس وغيرِهِما، ولو أنّ الباحِثَ اليوم يقتصِرُ على ما كتبه المؤرخون وحدهم عن حروبِ سيفِ الدولةِ للروم، لما استطاع أنْ يُدرِكَ عَظَمَةَ الأحْداثِ التي صنعها عصرُ سيفِ الدولةِ، أو أنْ يُقدِّرَ أهمّيَّةَ المعارِكِ الكُبرى التي خاضها مع البيزنطيين.

أمّا البيزنطيون أنفسُهُم فقد كانتْ عِنايةُ

مؤرخيهم وأدبائهم بحروبِ سيفِ الدولة وأعمالِهِ تملأ مؤلَّفاتِهِم: «فقد شغل الأميرُ الحمدانيُّ ـــ كما يقول المستشرقُ شلومبرجر ـــ أذهانَ المؤرخين والكتابَ والشعراءَ في القرنِ العاشرِ (الرابع الهجري) فما أن تقرأ صَفْحةً لمؤرخٍ بيزنطيٍّ، أو قطعةً لكاتبٍ من كتابِ ذلك العصرِ، أو قصيدةً من قصائدِ شاعرٍ من شعراءِ العربِ أو الرومِ، حتى يستهويَكَ الوصفُ والحديثُ عن هذا العدوِّ الجذَّابِ الذي حاربَ الأمبراطوريةَ البيزنطيةَ بفُرْسانٍ كان نصفُهُم من شعراءِ البوادي، ونصفُهُمُ الآخرُ من أمراءِ الحواضِرِ!».

وقد كان البيزنطيون ينظرون إلى معاركهم مع سيفِ الدولة نِظْرَةً دينيةً صليبيَّةً، فكانتْ جيوشُهُم في زحفِها تحمِلُ الصليبَ الأعظمَ. وقد رأينا ذاك في

معركةِ الحَدَثِ الحمراءِ، وكانوا إذا كسبوا المعركةَ وظفِرُوا على العربِ أقاموا الصلواتِ في كنائسِهِم، ابتهاجاً وشكراً للهِ، وكانوا إذا خَسِرُوا المعركةَ، يلوذُ قادتُهُم بالأديرَةِ، للاعتكافِ فيها، وقد لبسوا مُسُوحَ الرُّهْبانِ الصوفية، نَدَماً وتَوْبَةً واستغفاراً، واستعداداً لخوضِ معركَةٍ جديدةٍ قادمَةٍ، وقد رأينا ذاك في ترهُّبِ الدمستقِ برداس فوكاس بعد هزيمتِهِ وأسر وَلَدِهِ قسطنطين، وحزنه على وفاتِهِ في أسْرِ سيفِ الدولةِ، فأخلد إلى أحدِ الأديرةِ، استعداداً لمعركةِ الحَدَثِ الحمراءِ بعد ذلك. وكانتْ أناشيدُ البيزنطيين في عصرِ سيفِ الدولة تتغنّى بتدميرِ البلادِ العربيةِ، و ينقلُ المستشرقُ شلومبرجر نشيداً منها يقولُ:

« النصرُ للهِ الذي هدم البلادَ العربيةَ،

والنصرُ لله الذي شتّتَ شَمْلَ مَنْ يُنكِرُ التثليثَ المقدّسَ،

والنصر لله الذي جلّلَ بالخيبةِ هذا الأميرَ القاسي عدوَّ المسيحِ!

النصر لله، النصر لله».

فقد كان الأميرُ الحمدانيُّ في نظرِ البيزنطيين «عدوَّ المسيح» وسيفَ الإسلامِ المُصْلَتِ في وَجْهِهِم، ويحلو لبعضِ الباحثين العربِ اليوم أنْ يتساءلوا: هل كان الحمدانيون يحاربون البيزنطيين، جهاداً في سبيلِ الله، لِرَفْعِ كلمتِهِ وإتمامِ ما قام به الخُلفاءُ الراشدون والأمويون والعباسيون إلى عَهْدِ المُعْتَصِمِ، ومعركته الكبرى الفاصلة في عَمُّوريةَ؟ ولكننا لا نَجِدُ حاجَةً لطرحِ مثلِ هذا التساؤلِ، وقد أجاب عنه المتنبي وهو شاهدُ عيانٍ شارك في معركةِ

الحَدَثِ، وعرف بنفسِهِ أسرارَها، وأعلن أنَّها كانتْ حلْقَةً من حلقاتِ الصِّراعِ بين التوحيدِ والشِّرْكِ، وأنَّ سيفَ الدولةِ كان سيفاً للاسلام فيها:

ولستَ مليكاً هازماً لِنظيرِهِ
ولكنك التوحيدُ لِلشِّرْكِ هازمُ

والحقُّ أنّ للحمدانيين في دفاعِهم عن ديارِ الإسلامِ في وَجْهِ المطامعِ البيزنطيةِ المُغيرَةِ عليها هدفاً دينياً وقومياً ووطنياً وسياسياً، تَتَلاحَمُ خيوطُهُ وتتداخَلُ: فقد كانتْ ديارُ ربيعةَ المُتَاخِمَةُ للثُّغورِ عُرضةً للتهديدِ البيزنطيِّ المُسْتمِرِّ بالعدوان عليها، وهذه الديارُ موطنُ بني تغلبَ والعشيرةِ الحمدانيةِ، ودفاعُ الحمدانيين عنها دفاعٌ عن أرضِهم وقبيلتِهم، ودِفاعُهُم عن الإمارةِ التي أقامها سيفُ الدولةِ في شَماليِّ الشامِ دفاعٌ عن دولتِهِم، وهو دفاعٌ عن

الدِّيارِ الإسلاميةِ من ورائهم، وكنا قدَّمنا إعلانَ هذه الحقيقةِ بلسانِ المتنبي الذي أَدْرَكَ أنَّ أَمْنَ العراقِ ومصرَ تكفله انتصاراتُ سيفِ الدولةِ على الروم:

كـيـف لا تـأمـن الـعراقُ ومصرٌ
وسـرايـاكَ دونَـهـا والـخُـيـولُ

وكان في جيشِ الحمدانيين عددٌ كبير من المُتَطوِّعةِ، وهم مُجاهِدُون من الأتقياء المُرابطين في الثُّغورِ الإسلاميةِ، حباً في الاستشهادِ والفوزِ بما وعدَ اللهُ الشهداءَ من أجرٍ عظيمٍ.

وهكذا يكون الهدفُ من الحروبِ التي كان يخوضها سيفُ الدولةِ عاماً شاملاً، وكان الإيمانُ في صدورِ المحاربين المسلمين في الجيشِ الحمدانيِّ هو

القُوَّةَ المعنويَّةَ الكبرى التي تمنحُهُم الصمودَ والثباتَ، وتُغريهم بالاستماتَةِ والاستِشهادِ، لتحقيقِ النَّصْرِ، كما كان الإيمانُ دائماً وراءَ انتصارِ الفِئَةِ القليلَةِ المُؤمِنَةِ على الفئة الكثيرةِ الباغِيَةِ، وقد كانتِ القُوى المتقابلةُ في معارِكِ الحمدانيين مع الروم غيرَ مُتكافِئَةٍ، وكانتِ الهزائمُ تتوالى على الرومِ، برغم أعدادِهِمُ الهائِلَةِ المتفوِّقَةِ، وتجهيزاتِ جيوشِهِمُ الثقليةِ الضخمةِ.

وفي معركة الحَدَثِ الحمراءِ ــ كما شهدناها ــ تمكَّنَ المسلمون من التغلبِ على جيشِ الدمستقِ برداس فوكاس، رغم تفوُّقِهِ الكبيرِ في العددِ والأسِلحَةِ والتجهيزاتِ والدُرْبَةِ والتنظيمِ والفنِّ العسكريِّ، ووفرةِ القَادةِ المُتمرِّسين بالقِتالِ وأساليبِهِ، ورغم المعنوياتِ التي كانتْ تُغذِّيها أحقادٌ موتورَةٌ وثاراتٌ مُسْتِعرَةٌ، وقد كان القَائِدُ العامُّ

الدمستقُ أكبرَ موتورٍ ومَفْجوعٍ بولَدِهِ وهزائِمِهِ المتكررةِ، كما كان ابنُهُ نيسيفور فوكاس القائدُ الشجاعُ الموهوبُ مَفْجوعاً بأخيه، والخيباتِ المتواليةِ التي أصابتْ قِيادةَ أبيهِ، وكذلك سائرُ القادةِ الآخرين، من أقرباءِ الدمستقِ وخاصَّةِ المقرّبين إليه، وكان على مِثْلِ هؤلاء القَادةِ أنْ يستميتوا في العملِ على سَحْقِ الجيشِ الحمدانيِّ المُحاصر، وتدمير الثغر الذي يُمثِّلُ بمناعَتِهِ وتحصيناتِهِ تهديداً دائماً للامبراطوريةِ، يفتحُ الطريقَ أمامَ المسلمين إلى القسطنطينية! ولكنَّ ذلك لم يكن، فالموتورون المفجوعون المندفعون إلى الانتِقَامِ لم يثبتوا في الميدانِ أكثرَ من ساعاتٍ قليلةٍ، ولم يستطعِ الجيشُ البيزنطيُّ أنْ يستغلَّ أثر صدمَتِهِ الكاسِحَةِ الأولى للمسلمين في سَحْقِ معنوياتِهِمُ القِتاليَّةِ، رغم ما أصاب صُفوفَهُم من اضطرابٍ وتضعْضُعٍ، وعندما كان البيزنطيون

جادِّينَ في احتيازِ الأسرى من المسلمين، في انتظارِ انهيارِ مُقاومَةِ الجيشِ الحمدانيِّ كلِّهِ، أقدم سيفُ الدولةِ على تَنْفيذِ خطَّتِهِ الفِدائيَّةِ، فاسْتبسَلَ المسلمون، وقاموا بحركةِ الالتِفافِ المُفاجِئةِ على جناحي الجيشِ البيزنطيِّ، وعَصَرُوا المقاتلين فيهما عَصْراً، وشقَّ سيفُ الدولةِ وفُرْسانُهُ الخمسمائة صفوفَ البيزنطيين بسيوفِهِم، حتى وصلوا إلى مَرْكَزِ القيادةِ العامَّةِ، في قلبِ الجيشِ، بهُجومٍ خاطِفٍ، وراحوا يحصِدُون الرؤوسَ بسيوفِهِم حَصْداً، وانهارتِ القيادةُ البيزنطيةْ، وعمَّ الشَّلَلُ حركةَ العملياتِ تحت وَطْأةِ المُباغتَةِ، وهولِ المُجازَفةِ التي ردَّتْ إلى المسلمين ثقتَهُم بأنفسِهِم، بعد أنْ ساءتْ ظنونُهُم بالمعركةِ ونتائجِها، وتحوَّلَ ضعفُ المسلمين في أول النهارِ إلى قُوَّةٍ، وبَدَتْ بوادِرُ النصرِ العظيمِ الذي تحقَّقَ بهزيمةِ البيزنطيين عَصْرَ ذلك اليوم!

لقد كانتْ خطَّةُ سيفِ الدولةِ الفدائيةُ في معركةِ الحَدَثِ الحمراءِ هي سببَ النصر فيها، وكان نَصْراً سريعاً حاسِماً، عَصَفَ بالجيشِ البيزنطيِّ عَصْفاً، وسَحَقَ جناحيه وقلبَهُ، ومزَّقَ قيادتَهُ شرَ مُمزَّقٍ، وأوقع بجموعِهِ الزاخِرَةِ هزيمةً ماحِقَةً قبلَ أنْ تنقضيَ ساعاتُ النهارِ؛ فهي معركةٌ خاطِفةٌ: حقَّقَ فيها سيفُ الدولةِ بشجاعتِهِ وجرأتِهِ واستهتارِهِ بالموتِ ما كان يأملُهُ من وراءِ هجومِهِ المغامِرِ والمفاجىء: والحقُّ أنَّ الخطَّةَ وتنفيذَها مغامرةٌ كبيرةٌ، ومُجازَفةٌ حقيقيةٌ، لا يُقْدِمُ على تخطيطها وتحقيقها إلاّ قائدٌ مغامِرٌ ذو جرأةٍ تَفُوْقَ الحدَّ، لأنّه يُخاطِرُ فيها بكلِّ شيء دفعةً واحدةً: فلو أصيبَ سيفُ الدولةِ في هجومِهِ الكاسِحِ حين شقَّ صفوفَ البيزنطيين لِيصلَ إلى الدمستق، لكانتِ الكارثةُ الكبرى قد أطاحت

في دقائق بالحمدانيين: أميراً ودولةً وجيشاً، وانهارتْ إثر ذلك مُقاومةُ الثُّغورِ الإسلاميةِ، وأصبحَتِ الطريقُ أمامَ الجيشِ البيزنطيِّ منذ ذلك اليوم مَفْتوحَةً للوصولِ إلى بيتِ المقْدِسِ، وتحقيق الأحلامِ الصليبيةِ المُبكِّرةِ قبل أوانِها.

غير أنَّ المغامرةَ قد نجحتْ، وخرج سيفُ الدولةِ منها بالفتحِ الجليلِ، وكان الأميرُ الحمدانيُّ في تنفيذِ خطَّتِهِ قائداً فِدائياً بطلاً جريء القلبِ، سريعَ الحركةِ، بعيدَ الطموحِ، مُؤهَّلاً خيرَ تأهيلٍ لِيكونَ في عصرِهِ سيفَ الإسلامِ والعُروبةِ في مُواجهةِ الأخْطارِ الصليبيةِ المبكِّرَةِ الزاحِفَةِ على ثُغورِ المسلمين ودِيارِهم.

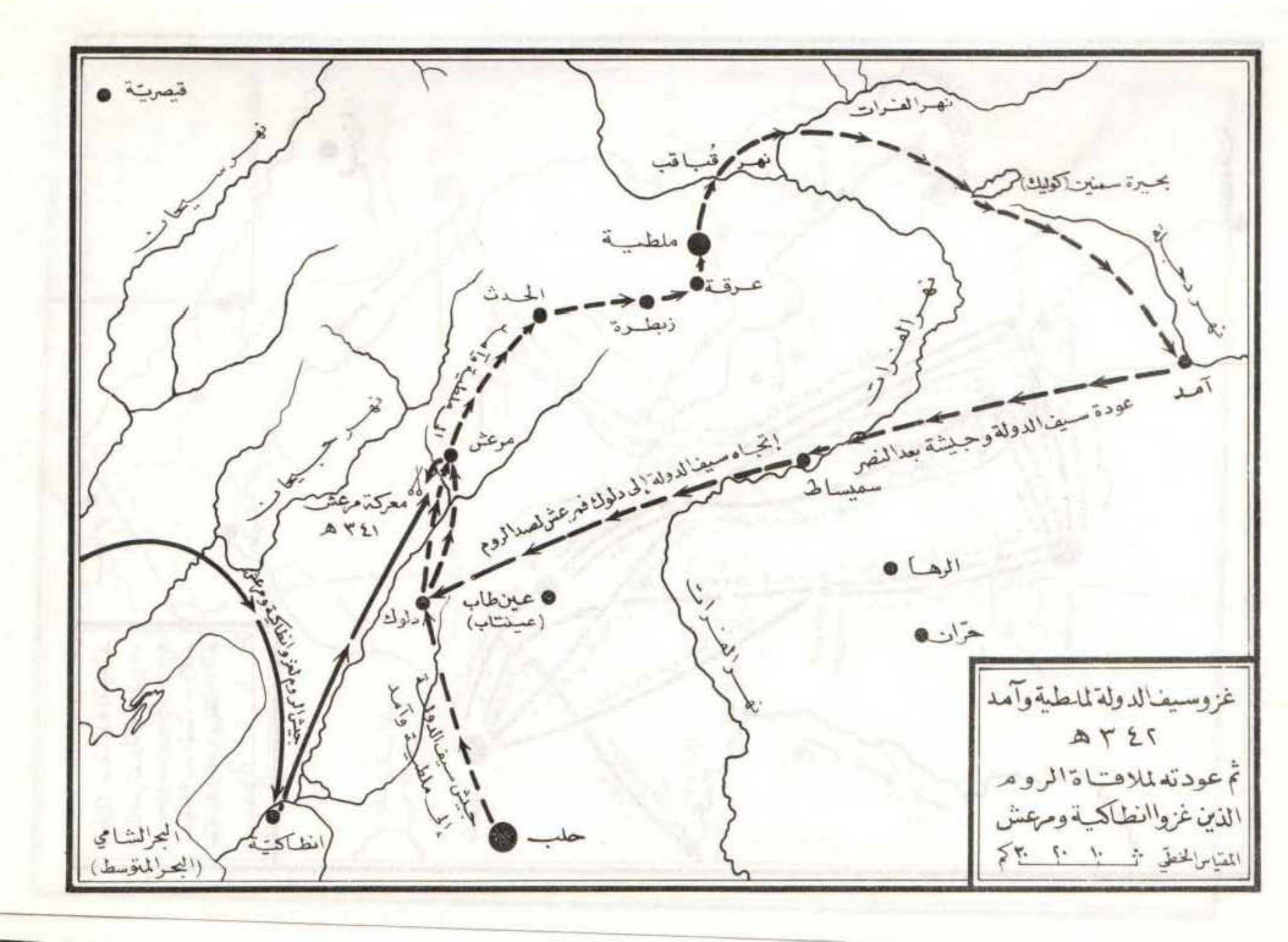
* * *

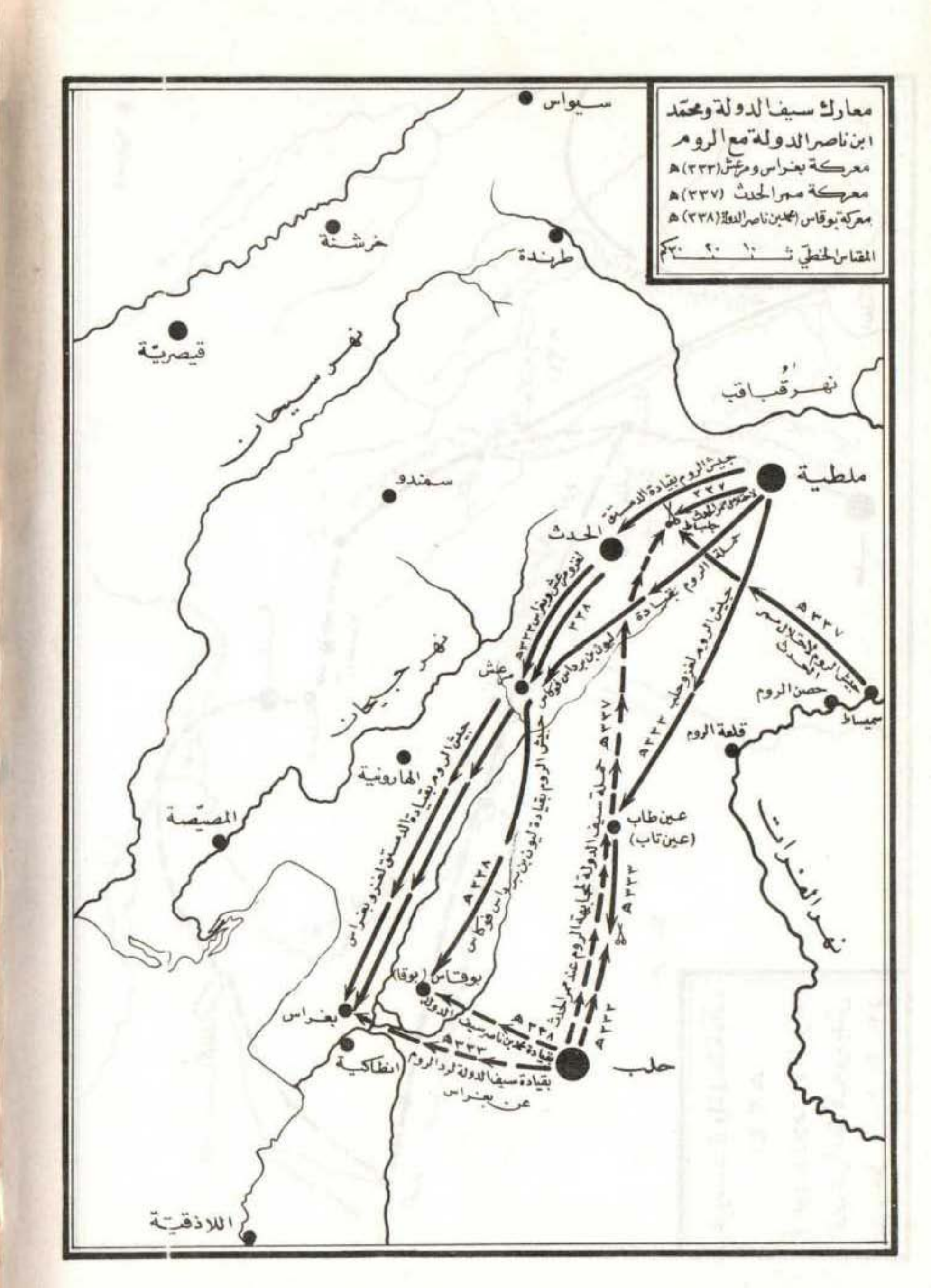
ومن طبيعةِ المُغامَراتِ ألاّ يكونَ النجاحُ دائماً

حليفَها: فبعد سِلْسِلَةٍ من الانتصاراتِ المتألقةِ التي حققها البطلُ الحمدانيُّ المغامِرُ، بدأ نجمُهُ يميلُ إلى الأفولِ، وتتابَعَتِ إنكساراتُهُ، وأصاب السيفَ العربيَّ المُصْلَتَ تثلُّمٌ من كثْرةِ القِراعِ والضِّرابِ، ووهتْ أجنحةُ النَّسْرِ وعجزتْ عن مُعاودَةِ التحليقِ، وقضى الفالجُ على طاقَةِ جسدِهِ وحيويّته، وطحنته الكوارثُ التي ضعْضَعَتْ مُلْكَهُ، وفي يوم من عام ٣٥٦هـ يلفظ سيفُ الدولةِ أنفاسَهُ على فراشِ موتِهِ في ميافارقين، وقد أوصى أنْ يوضعَ رأسُهُ في قبرِهِ على لَبنَةٍ معجونةٍ من غُبارِ المعارِكِ التي نفضها عن ثيابِهِ طوال حياتِهِ، ويُحيّي المستشرقُ شلومبرجر تلك الوسادةَ المجيدةَ التي أسند إليها البطلُ الحمدانيُّ العظيمُ رأسَهُ في قبرِهِ، ويُعدُّها وحدَها في ظُلْمَةِ القبرِ شاهداً فخوراً لألفِ معركةٍ!

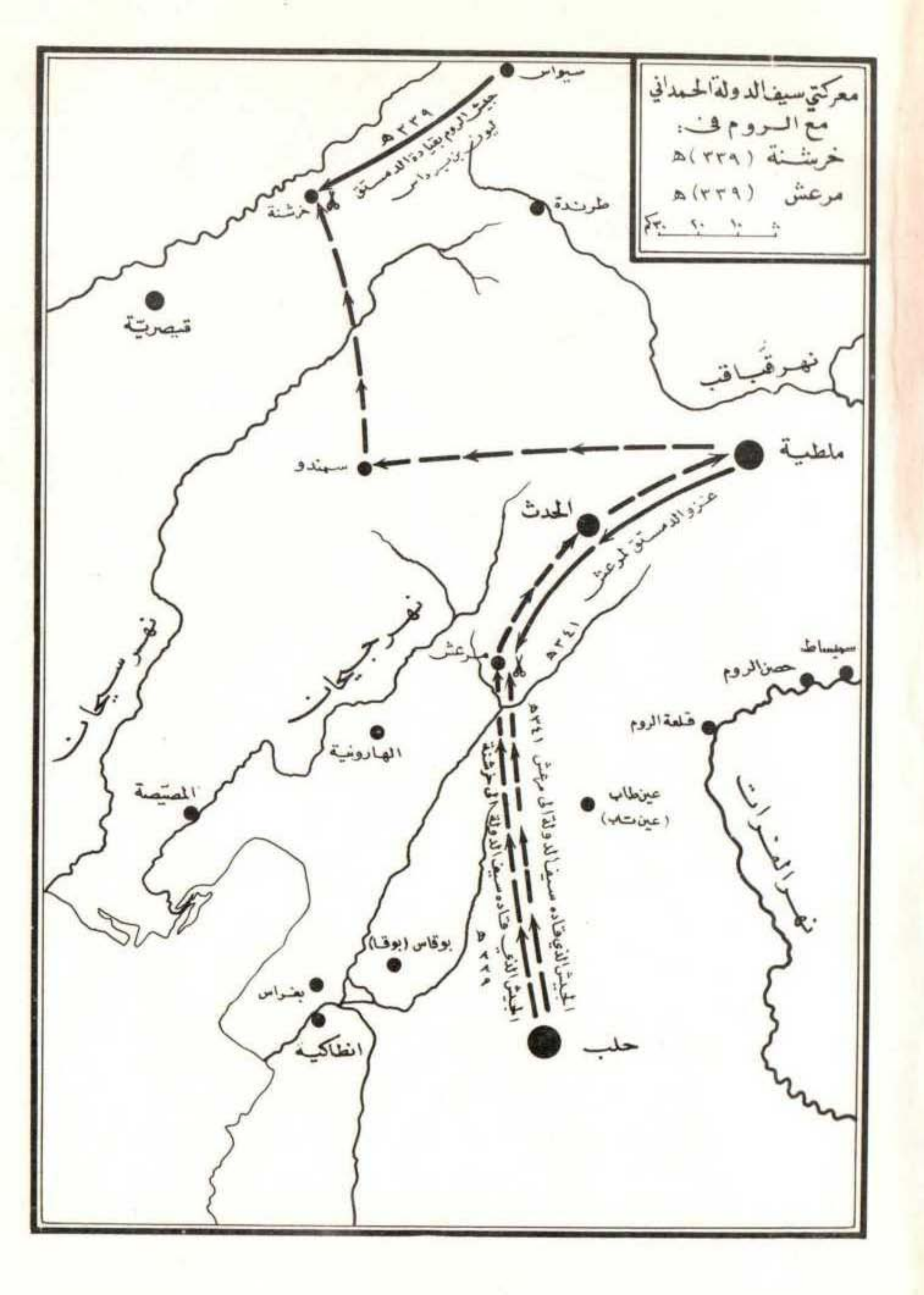
المحتوى

[illegible]


قيصرية
ملطية
عرقة
زبطرة
الحدث
مرعش
معركة مرعش
٣٤١ هـ
نهر قباقب
نهر الفرات
بحيرة سمنين (كوليك)
آمد
عودة سيف الدولة وجيشه بعد النصر
سميساط
إتجاه سيف الدولة إلى دلوك فمرعش لصد الروم
الرها
حران
عين طاب
(عينتاب)
دلوك
حلب
انطاكية
البحر الشامي
(البحر المتوسط)
غزو سيف الدولة لملطية وآمد
٣٤٢ هـ
ثم عودته لملاقاة الروم
الذين غزوا انطاكية ومرعش
المقياس الخطي ٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ كم



معارك سيف الدولة ومحمّد
ابن ناصر الدولة مع الروم
معركة بغراس ومرعش (٣٣٣) هـ
معركة ممر الحدث (٣٣٧) هـ
معركة بوقاس (محمد بن ناصر الدولة) (٣٣٨) هـ
المقياس الخطي ٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ كم
سيواس
خرشنة
طرندة
قيصرية
نهر سيحان
نهر قباقب
ملطية
سمندو
الحدث
مرعش
نهر جيحان
حصن الروم
سميساط
قلعة الروم
الهارونية
المصيصة
عين طاب
(عين تاب)
نهر الفرات
بوقاس (بوقا)
بغراس
انطاكية
حلب
بقيادة سيف الدولة لرد الروم عن بغراس
اللاذقية



معركتي سيف الدولة الحمداني
مع الروم في:
خرشنة (٣٣٩)هـ
مرعش (٣٣٩)هـ
ث ١٠ ٢٠ ٣٠كم
سيواس
جيش الروم بقيادة الدمستق
بورس بن برداس
٣٣٩ هـ
خرشنة
طرندة
قيصرية
نهر قباقب
ملطية
سمندو
الحدث
غزو الدمستق لمرعش
٣٤١هـ
مرعش
نهر جيحان
نهر سيحان
الهارونية
المصيصة
سميساط
حصن الروم
قلعة الروم
عين طاب
(عين تاب)
نهر الفرات
الجيش الذي قاده سيف الدولة الى مرعش ٣٤١هـ
الجيش الذي قاده سيف الدولة الى خرشنة
٣٣٩ هـ
بوقاس (بوقا)
بغراس
انطاكية
حلب



معارك وبطولات حربية اسلامية وعربية

الحدث الحمراء — وادي لكه — المنصورة — ذي قار

وادي المخازن — بدر الكبرى — عمورية — الذلاقة

فتح قسطنطينية — عين جالوت — ميسلون — الارك

الجبل الاخضر — اليمامة — نهاوند — احد

بلاط الشهداء — القادسية — اليرموك — حطين

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -